مواقع الجملة المنفية في معلقة امرئ القيس وأثرها في تعميق الدلالة البلاغية وإثرائها

د/ السيد أحمد أحمد موسى

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بكلية

الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببورسعيد

(العدد الخامس والثلاثون)

(الإصدار الأول)

(١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م)

مواقع الجملة المنفية في معلقة امرئ القيس وأثرها في تعميق الدلالة البلاغية وإثرائها

السيد أحمد أحمد موسى
قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، بورسعيد، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية.
البريد الإلكتروني: elsaidmossa173@azhar.edu.eg

ملخص البحث: يهدف البحث إلى دراسة الجملة المنفية في مواقعها، ويحاول – في ضوء معطيات القرائن من معاني النحو وأحكامه، وعوامل السياق وعناصره، وطبيعة المواقف، ومقتضيات الأحوال – التعرف على أثر هذه المواقع في إثراء الدلالة البلاغية وتكثيرها، وتعميقها وترسيخها، وتقريرها وتوكيدها، والوقوف على مدى إحاطتها بالمعنى، ووفائها بالغرض، وقد أردت من خلال هذا البحث – إلى جوار ما سبق – أن أكشف عن جانب من جوانب العبقرية الفذة عند شعرائنا الجاهليين، وبخاصة امرئ القيس– في توظيف هذه القدرات والطاقات الهائلة الكامنة في اللغة توظيفا رائعا، يقوم على مراعاة البعد الفني، وينهض بتلبية حاجات المعنى، والوفاء بمقتضيات المقام ومتطلباته، كما أردت أن أثبت من خلاله – أيضا – أن الشعر الجاهلي ما زال فيه من السخاء والعطاء، والجدة والحيوية ما يمد كل صاحب نظر، وكل صاحب قدرة على الاستخراج والاستنباط، وأن وراءه من المعاني والإيحاءات ما هو أعمق وأخفى، وأبعد من الدلالات الظاهرة المباشرة، مع كل ما لحقه على أيدي الحداثيين من ظلم وغبن، وما ناله من إلحاف وإجحاف، فقد أوغلوا في كيل الاتهامات له، وإلصاق المعايب به، وقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع ما يأتي: جدة الموضوع وبكارته، فلا أعلم بحثا بلاغيا تخصص في دراسة هذا الموضوع ، وعكف على بحثه، كثرة مواضع الجملة المنفية في المعلقة كثرة لافتة، وتنوع مواقعها، وتغاير أدواتها، وتعدد صورها، محاولة الكشف عن بعض طرائق امرئ القيس ووسائله في توظيف هذه المواقع

المختلفة باعتباراتها المتعددة توظيفًا فنيًا في إحكام صنعته الشعرية، وتحقيق نوع من التماسك النصي، والتلاحم البنيي في معلقته، وكذلك في إثراء الدلالة البلاغية وتكثيرها، وتعميقها وترسيخها على نحو يفي بالغرض المقصود.

الكلمات المفتاحية: مواقع، الجملة المنفية، تعميق، إثراء، الدلالة البلاغية.

The position of the exiled sentence in Imru' al-Qays' suspension and its impact on deepening and enriching the rhetorical connotation.

Ahmed Ahmed Musa
Department of Rhetoric and Criticism, College of Islamic and Arabic Studies for Girls, Port Said, Al-Azhar University, Arab Republic of Egypt.(
Email: elsaidmossa173@azhar.edu.eg

Abstract: The research aims to study the negative sentence in its positions, and it tries - in the light of the evidence data of the meanings and provisions of grammar, context factors and elements, the nature of situations, and the requirements of conditions - to identify the impact of these sites in enriching and multiplying the rhetorical significance, deepening and consolidating it, and deciding and confirming it, And to determine the extent to which it encompasses the meaning, and its fulfillment of purpose, and I wanted through this research - in addition to the above - to reveal an aspect of the extraordinary genius of our pre-Islamic poets, especially Imru' al-Qays - in the wonderful employment of these abilities and energies inherent in the language. On taking into account the artistic dimension, and advancing by meeting the needs of meaning, and fulfilling the requirements of the place and its requirements, as I wanted to prove through it - also - that the pre-Islamic poetry still contained generosity and giving, and novelty and vitality that extends to every person who has a view, and every person has the ability to extract and deduction, and that Behind him are the meanings and overtones that are deeper and more hidden, and beyond the direct apparent connotations, with all the injustice and unfairness that befallen him at the hands of the modernists, and the prejudices and prejudices he has suffered. This topic is what follows: the novelty of the topic and its virginity, so I do not know of a rhetorical research that specialized in studying this topic, and

devoted himself to its research. Employing these different sites with their multiple considerations in order to tighten his poetic craftsmanship, achieve a kind of textual cohesion, and structural cohesion in his commentary, as well as in enriching and multiplying the rhetorical significance, deepening and consolidating it in a way that meets the intended purpose.

Keywords: sites, negative sentence, deepening, enrichment, rhetorical significance.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على إمام المرسلين ، وخاتم النبيين سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد:

فمعلقة امرئ القيس من عيون الشعر العربي، وفي الذروة والسنام منه، ولا عجب في ذلك فقد اختصها العرب من بين سائر شعره بالتعليق على أستار الكعبة؛ وذلك من فرط احتفائهم بها ، وشدة استجادتهم لها ، واستحسانهم إياها.

وقد حفلت هذه المعلقة بكثير من الصور والأخيلة ، وحوت العديد من الأنماط الأسلوبية المختلفة، والتراكيب اللغوية المتنوعة التي تمثل – من وجه – مظهرا من مظاهر الثراء والعظمة في شعرنا العربي عامة ، والجاهلي منه خاصة.

وتمثل – من وجه آخر – دليلا حيا على شاعرية الشاعر، وبرهانا ساطعا على اتساع قاموسه اللغوي ، وامتلاكه ناصية البيان، وزمام اللغة، وحسن بصره بمواقع الكلام ومراميه.

كما تمثل– من وجه ثالث– ميدانا رحبا، وأفقا واسعا، وأرضا خصبة للدراسات اللغوية –على اختلافها وتنوعها–؛ حيث يجد فيها كل متخصص في علم من علوم العربية ضالته التي يبحث عنها، وبغيته التي يصبو إليها.

ومع كثرة ما كتب حول المعلقة من أبحاث ودراسات في القديم والحديث إلا أن كثيرا من هذه الأنماط الأسلوبية المختلفة ، والتراكيب اللغوية المتنوعة لم ينل حظه من الدراسة البلاغية وافرا، فلم تمتد إليه يد صناع، ولم يتوجه نحوه فكر بلاغي ونقدي متأمل؛ يحاول أن يرتاد مجاهيله، ويقتحم غمار لجته، ويغوص في بحار معانيه؛ ليفتق عن مكنون أسراره، ويستخرج الخبييء من درره وجواهره.

وكان من أبرز هذه التراكيب التي حفلت بها المعلقة الجملة المنفية؛ فقد كثرت مواضعها في المعلقة كثرة لافتة ، وتعددت مواقعها على نحو ملحوظ؛

فجاءت في موقع النعت ، وفي موقع الحال ، وجاءت مستأنفة في سياقها ، وبرزت في صورة التذييل ، والإيغال، وخرجت مخرج الترقي والكناية ، وغير ذلك من المواضع التي برزت في معرضها، وخرجت في لباسها.

وتغايرت أدواتها؛ فجاءت منفية بـ" لم "، و" ما "، و" لا "، و" لما "، كما جاءت منفية بـ" ليس".

وتنوعت صورها؛ فجاء النفي صريحا بإحدى أدواته المذكورة سلفا، وجاء النفي ضمنيا؛ بدلالة الفحوى، وبمعونة القرائن السياقية أو المقامية، وهو ما أضفى على الجملة المنفية ثراء واسعا في الدلالة، وآفاقا رحبة من المعنى، وعمقا في الإيحاء.

وهذا البحث الذي جاء بعنوان : " مواقع الجملة المنفية في معلقة امرئ القيس وأثرها في تعميق الدلالة البلاغية وإثرائها " يعكف على دراسة الجملة المنفية في مواقعها ، ويحاول – في ضوء معطيات القرائن من معاني النحو وأحكامه، وعوامل السياق وعناصره ، وطبيعة المواقف، ومقتضيات الأحوال – التعرف على أثر هذه المواقع في إثراء الدلالة البلاغية وتكثيرها، وتعميقها وترسيخها ، وتقريرها وتوكيدها، والوقوف على مدى إحاطتها بالمعنى، ووفائها بالغرض.

وقد أردت من خلال هذا البحث – إلى جوار ما سبق – أن أكشف عن جانب من جوانب العبقرية الفذة عند شعرائنا الجاهليين ، وبخاصة امرئ القيس– في توظيف هذه القدرات والطاقات الهائلة الكامنة في اللغة توظيفا رائعا ، يقوم على مراعاة البعد الفني ، وينهض بتلبية حاجات المعنى ، والوفاء بمقتضيات المقام ومتطلباته.

كما أردت أن أثبت من خلاله – أيضا – أن الشعر الجاهلي ما زال فيه من السخاء والعطاء ، والجدة والحيوية ما يمد كل صاحب نظر ، وكل صاحب قدرة على الاستخراج والاستنباط ، وأن وراءه من المعاني والإيحاءات ما هو أعمق وأخفى ، وأبعد من الدلالات الظاهرة المباشرة ، مع كل ما لحقه

على أيدي الحداثيين من ظلم وغبن، وما ناله من إلحاف وإجحاف ، فقد أوغلوا في كيل الاتهامات له ، وإلصاق المعايب به.

وقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع ما يأتي:

أولا: جدة الموضوع وبكارته ، فلا أعلم بحثا بلاغيا – مع كثرة ما كتب حول المعلقة من دراسات – تخصص في دراسة هذا الموضوع ، وعكف على بحثه.

ثانيا: كثرة مواضع الجملة المنفية في المعلقة كثرة لافتة ، وتنوع مواقعها، وتغاير أدواتها، وتعدد صورها، وهذا له في شعر امرئ القيس ما له ، ووراءه ما وراءه من دلالة وإيحاء.

ثالثا: محاولة الكشف عن بعض طرائق امرئ القيس ووسائله في توظيف هذه المواقع المختلفة باعتباراتها المتعددة توظيفًا فنيًا في إحكام صنعته الشعرية، وتحقيق نوع من التماسك النصي، والتلاحم البنيي في معلقته، وكذلك في إثراء الدلالة البلاغية وتكثيرها، وتعميقها وترسيخها على نحو يفي بالغرض المقصود ، ويحقق الهدف المنشود.

وقد جاء هذا الموضوع في مقدمة، وتمهيد، وستة محاور، وخاتمة، وثبت للمصادر والمراجع، وآخر للموضوعات.

١- المقدمة: تحدثت فيها عن أهمية الموضوع ، وذكرت فيها أهدافه، والأسباب الدافعة إلى اختياره، وأودعتها الخطة التي يقوم عليها البحث، والمنهج المتبع في الدراسة.

٢- التمهيد: ويشتمل على المكانة الأدبية لمعلقة امرئ القيس.

٣- المحور الأول: مواقع الجملة المنفية بـ"لم" في معلقة امرئ القيس وأثرها في تعميق الدلالة البلاغية وإثرائها.

٤- المحور الثاني : مواقع الجملة المنفية بـ"ما" في معلقة امرئ القيس وأثرها في تعميق الدلالة البلاغية وإثرائها.

٥- المحور الثالث : مواقع الجملة المنفية بـ" لا " في معلقة امرئ القيس وأثرها في تعميق الدلالة البلاغية وإثرائها.

٦- المحور الرابع : مواقع الجملة المنفية بـ" لما " في معلقة امرئ القيس وأثرها في تعميق الدلالة البلاغية وإثرائها.

٧- المحور الخامس : مواقع الجملة المنفية بـ" ليس" في معلقة امرئ القيس وأثرها في تعميق الدلالة البلاغية وإثرائها.

٨- المحور السادس : مواقع الجملة المنفية نفيا ضمنيا في معلقة امرئ القيس وأثرها في تعميق الدلالة البلاغية وإثرائها.

٩- الخاتمة : وفيها أهم نتائج البحث.

١٠- فهرس المصادر والمراجع ، وفهرس الموضوعات.

وقد اقتضت طبيعة هذا الموضوع أن يكون المنهج المتبع في الدراسة هو المنهج الاستقرائي التحليلي الذي يقوم على حصر مواضع الجملة المنفية في المعلقة حصرا كاملا ، ثم تصنيفها وتبويبها على حسب المحاور المفصلة في خطة البحث ، ثم تحليلها في مواقعها تحليلا بلاغيا في ضوء معطيات القرائن السياقية والمقامية ؛ للكشف عن مكنون أسرارها ، واستخراج الخبيء من دررها وجواهرها، والتعرف على أثر هذه المواقع ودورها في إثراء الدلالة وتكثيرها، وتعميقها وترسيخها، وتقريرها وتوكيدها ، والوقوف على مدى وفائها بالمعنى، وتصويرها للغرض، وموافقتها للمقام.

و الله أسأل أن يكون من وراء القصد ، وأن يعصمني من الزلل ، وأن يرزقني السداد والتوفيق، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

د/ السيد أحمد أحمد موسى

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بكلية

الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببورسعيد

" التمهيد "

" المكانة الأدبية لمعلقة امرئ القيس "

الحديث عن مكانة امرئ القيس، أو عن مكانة معلقته الأدبية وإن كان من ضرورات المنهج العلمي السديد إلا أنه ربما لا يضيف في مجاله جديدا؛ لكثرة ما كتب حول امرئ القيس نفسه، وحول شعره عامة، ومعلقته خاصة في القديم والحديث من دراسات وأبحاث.

وقد لا أجدني مبالغا إذا قلت : إن قصيدة من قصائد الشعر العربي على كثرته وتنوعه، وامتداد تاريخه في أعماق الزمن السحيق ، وكثرة شعرائه ، وطول نفسهم وباعهم في القريض، وعلى كثرة ما كتب حوله وتنوعه – وهذا أمر ليس عنا ببعيد ، فقد كان هذا من أسباب تأليف التبريزي كتابه المشهور على شرح القصائد العشر[(١)] – لم تحظ بما حظيت به معلقة امرئ القيس من اهتمام ودراسة ، ولم تنل من الشهرة والذيوع مثل ما نالت؛ حتى إن محاولة الوقوف عليه كله أو حصره ليست من الإمكان بحال؛ لاستحالة رصده وجمعه.

ومعلقة امرئ القيس هي إحدى المعلقات السبع المشهورة، أو التسع، أو العشر، أو الست[(٢)] التي نالت تقدير العرب واهتمامهم، وعكف عليها العلماء دراسة ونقدا، واتفقوا على أنها أجود شعر العرب في الجاهلية وأفضله ، وأقواه سبكا، وأوفاه معنى، وأنها تمثل طور النضج والكمال للشعر العربي عامة، والجاهلي منه خاصة؛ ولذلك يقول ابن عبد ربه: "لقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم،

---

(١) ينظر شرح القصائد العشر للخطيب التبريزي ص١٣ ، تحقيق : الإمام محمد الخضر حسين، شيخ الأزهر، الطبعة الأولى ٢٠١٣م ، دار الصديق للعلوم ، دمشق .

(٢) – وذلك حسب اختلاف العلماء حول عددها ، وحول أسماء شعرائها .

فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة، وعلقتها بأستار الكعبة، فمنه يقال: مذهبة امرئ القيس، ومذهبة زهير ...(١) ".

ويقول ابن رشيق: " وكانت المعلقات تسمى المذهبات ؛ وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القباطي بماء الذهب ، وعلقت على الكعبة ، فلذلك يقال: مذهبة فلان، إذا كانت أجود شعره (٢) ".

ولا شك في أن معلقة امرئ القيس تمثل واسطة عقد هذه المعلقات وغرتها، ودرة تاجها، إذ هي – باتفاق العلماء – أجودها وأحسنها، وأفضلها وأقواها، وهي أول ما علق من الشعر على أستار الكعبة، وكان للشاعر فيها – وفي غيرها من قصائده – ابتكارات في الشعر، وطرائق فيه، احتذى الشعراء الآخرون حذوه فيها، واتبعوا طريقته، واقتفوا أثره دهرا بعد دهر، وجيلا بعد جيل.

وتقع المعلقة في اثنين وثمانين بيتا قد تنقص قليلا، ومرد ذلك إلى اختلاف الرواية، وتعدد الرواة، وقد نظمها الشاعر على بحر الطويل الذي يعد من أطول بحور الشعر حرفا، وأقواها نغما وجرسا.

والمعلقة وإن تعددت أغراضها ، وتنوعت موضوعاتها – بحسب الظاهر–، حيث اشتملت على بكاء الأطلال ، وعلى الغزل وتذكر أيام اللهو والعبث ، وعلى غرض الوصف إلا أنها في مجملها ترتد إلى موضوع واحد ، وغرض عام يجمعها جميعا؛ إذ هي في حقيقة الأمر صور استرجعتها الذكرى وبكاها الشاعر، وطلب من صاحبيه في مطلع المعلقة بكاءها معه، بما في ذلك وصف الصيد والمطر الذي كان يرى برقه صاحبيه، ويقعد هو له يرقبه، حتى

---

(١) – العقد الفريد لابن عبد ربه ١١٨/٦، الطبعة الأولي ١٤٠٤ هجرية ، دار الكتب العلمية، بيروت .

(٢) – العمدة في محاسن الشعر لابن رشيق ٩٦/١ ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة ١٩٨١م ، دار الجيل ، بيروت .

الليل الذي كان جاثما بهمومه وأثقاله على صدره ، لا يخرج عن هذا الإطار، ولا يحيد عن هذا النهج(١).

بل إن التجويد البالغ ، والإتقان المحكم في هذه القصيدة الذي تفوقت به على شعر الشاعر كله إنما كان – حسبما قرر علماؤنا – من فرط توقه وتحرقه ، وتعلقه بهذه الذكرى(٢).

(١) – ينظر الشعر الجاهلي . دراسة في منازع الشعراء ص٢٩ ، دكتور : محمد محمد أبو موسى ، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م ، مكتبة وهبة ، القاهرة .

(٢) – ينظر نفس المرجع ص٢٩ .

" المحور الأول "

" مواقع الجملة المنفية بـ" لم " في معلقة امرئ القيس وأثرها في تعميق الدلالة البلاغية وإثرائها "

من المشهور لدى العلماء أن " لم " من الأدوات الجازمة التي تختص بالدخول على الفعل المضارع – وذلك خلافا لبعضهم [(١)]– فتقلب معناه إلى المضي.

ولا يلزم معها اتصال المنفي بها بالحال، بل قد يكون منقطعا، حيث ينتفي حدوث الفعل وحصوله في وقت ما، ثم بعد ذلك ينقطع النفي، ومما استشهد به العلماء لهذا المعنى قوله سبحانه: " هل أتي على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا " الإنسان: ١ ، وقد يكون النفي بها متصلا إلى زمن التكلم ، أي الحال ، مثل قوله سبحانه: " ولم أكن بدعائك رب شقيا " مريم :٤، وقد يكون متصلا لا ينقطع في الحال ، ولا في الاستقبال، كقوله تعالى: " لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد " الصمد : ٣-٤ [(٢)])، ويرجع السبب في ذلك – كما ذكر صاحب الكتاب – أن " لم " لنفي " فعل " وليست لنفي " قد فعل " ، فإن صيغة " فعل " تحتمل القرب والبعد ، بخلاف " قد فعل " فلا يكون المنفي بها إلا قريبا[(٣)].

---

(١) – ينظر الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي ص٢٦٧م ، تحقيق : د/ فخر الدين قباوة – أ/ محمد نديم فاضل ، الطبعة الأولى ١٩٩٢م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٢) – ينظر المرجع السابق نفسه ص٢٦٨ ، كما ينظر كتاب : معاني النحو .د/ فاضل صالح السامرائي ١٨٩/٤ ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م ، دار الفكر للطباعة والنشر ، عمان – الأردن .

(٣) – ينظر الكتاب لسيبويه ١١٧/٣ ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الثالثة ١٩٨٨م ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام المصري ٢٨٠/١ ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، طبعة ١٩٨٧ ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، كما ينظر معاني النحو .د/ فاضل صالح السامرائي ١٠/٤ .

فإذا تجاوزنا هذه التوطئة الموجزة ، ويممنا وجهنا شطر معلقة امرئ القيس؛ للوقوف في محراب الجملة المنفية ب " لم " فيها ؛ نتأمل مواقعها، ونستبطن خوافيها ، ونقص أثرها في تنامي الدلالة البلاغية وثرائها فإن السبيل إلى ذلك يمر – أولا – من خلال رصد مواضع هذه الجملة في المعلقة، واستقرائها، وقد حصر البحث من ذلك مواضع سبعة ، هي كل ما جاء من هذا النمط الأسلوبي في معلقة الشاعر.

أما الموضع الأول فجاء في مطلع المعلقة، وفي البيت الثاني منها تحديدا في قوله:

فَتُوضِحَ فالمِقراةِ لم يَعْفُ رَسْمُهَا لِما نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وشَمْأَلِ(١)

وأما الموضع الثاني والثالث فبرزا في معرض خطابه عنيزة التي اعتلى إلى هودجها ، وتجاذب معها أطراف الحديث :

إِذا ما بَكى مِن خَلفِها اِنصَرَفَت لَهُ بِشِقٍّ وَتَحتي شِقُّها لَم يُحَوَّلِ(٢).

وقوله : **وَيَوماً عَلى ظَهرِ الكَثيبِ تَعَذَّرَت عَلَيَّ وَآلَت حَلفَةً لَم تَحلَّلِ**(٣).

والموضع الرابع جاء في سياق حديثه عن المرأة التي كنى عنها ببيضة خدر، في قوله:

وَيُضحي فَتيتُ المِسكِ فَوقَ فِراشِها نَؤومُ الضُحى لَم تَنتَطِق عَن تَفَضُّلِ (٤)

والموضع الخامس والسادس جاءا متتابعين في معرض حديثه عن فرسه ، وهو يصف رحلة صيد ناجحة، في قوله :

فَأَلحَقَنا بِالهادِياتِ وَدونَهُ جَواحِرُها في صَرَّةٍ لَم تَزَيَّلِ(٥)

---

(١) – ديوان امرئ القيس ص٨ ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف ، مصر ١٩٩٠م .

(٢) – المرجع السابق نفسه ص١٢ .

(٣) – المرجع نفسه ص١٢ .

(٤) – المرجع نفسه ص١٧ .

(٥) – المرجع السابق نفسه ص٢٢ .

وقوله: **فَعادى عِداءً بَينَ ثَورٍ وَنَعجَةٍ دِراكاً وَلَم يُنضَح بِماءٍ فَيُغسَلِ**(١)

أما الموضع الأخير فقد تمثل شاخصا في معرض وصفه السيل الهادر الذي دمدم على كل شيء في طريقه ، وذلك في قوله :

وَتَيماءَ لَم يَترُك بِها جِذعَ نَخلَةٍ وَلا أُجُماً إِلّا مَشيداً بِجَندَلِ (٢).

والمتأمل في كل المواضع المذكورة سلفا يجد أن الرباط الذي يجمعها، والعروة التي تشدها هي أداة النفي المستخدمة فيها، وهي "لم" خاصة ، وقد دخلت في جميع هذه المواضع على الفعل المضارع ، فقلبت معناه إلى المضي ، ولا يلزم اتصال المنفي بهذه الأداة بالحال، بل قد يكون منقطعا، وقد يكون متصلا ، وذلك على النحو الذي سبق بيانه مجملا، وسوف يأتي تفصيله لاحقا في دراسة المواضع وتحليلها إن شاء الله تعالى.

أما الموضع الأول الذي جاء في مطلع المعلقة: " فتوضح فالمقراة ..... " فقد كان لوقوع الجملة المنفية ب " لم " فيه ، وهي قوله " لم يعف رسمها " – من وجه – موقع الحال من المواضع المذكورة سلفا ، على أن تأويل المعنى : حال كون هذه المواضع لم يعف رسمها، ولم ينمح أثرها بالكلية؛ للسبب المذكور في الشطرة الثانية دور بارز ، وأثر كبير في ترقي الدلالة وتصاعدها، وتكثيفها وتعميقها؛ لما في التقييد بالجملة الحالية المنفية – حينئذ – من المبالغة في التأكيد على بقاء ذكرى الحبيب والمنزل، وتقرير عدم اندراسها حقيقة، أو في قلب الشاعر وتشديده ، فإن بقاء هذه الذكرى المأمور بالوقوف لبكائها في مستهل المعلقة: "قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل " إنما هو من لوازم بقاء الرسم، وعدم عفائه أو اندراس معالمه بالكلية ؛ لأن بقاءه على هذا النحو أهيج للذكرى، وأبعث للشجن والحزن المترتب عليه البكاء.

---

(١) –المرجع نفسه ص٢٢ .

(٢) – المرجع نفسه ص٢٥ .

وتأكيد هذه الوجهة في التحليل من قرينة السياق؛ بدلالة عود الضمير المؤنث المضاف إلى الرسم في قوله: " رسمها " من الجملة المنفية إلى المواضع المذكورة(١) ؛ فإنه ظاهر الدلالة في هذا المعنى؛ لشده عري الكلام ، وتوثيقه معاقده؛ لربطه الحال بصاحبها، وإيحائه بالتلازم الشديد والصلة القوية بينهما.

ويجوز – من وجه آخر – أن تكون الجملة المنفية في موقع النعت للنكرة "منزل"، وقد فصل بين النعت ومنعوته بالجار والمجرور: "بسقط اللوى" الواقع بين المواضع الأربعة المذكورة، والتي عطف بعضها على بعض، وهي: "بين الدخول – فحومل– فتوضح – فالمقراة"، وإنما جاز الفصل؛ لأن الفاصل ليس بأجنبي من المنعوت؛ لأن هذا الموضع هو عين المنزل المذكور، أو لكون المنزل واقعا في عرصات هذه المواضع، بادية رسومه فيها؛ بقرينة إضافة الرسم إلى الضمير العائد إليه، في إحدى الوجوه المذكورة في هذا الضمير(٢).

وإنما عاد الضمير المضاف إلى الرسم مؤنثا إلى المنزل، مع أن اللفظة خرجت مخرج التذكير، إما على تأويل المنزل بالدار أو المنزلة، قال أبو عمرو: سمعت أعرابيا يقول: فلان لغوب جاءته كتابي فاحتقرها، قال: فقلت: أتقول: جاءته كتابي؟ قال: أليس بالصحيفة؟(٣).

---

(١) – ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص٢٢ ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، الطبعة السابعة ٢٠١٧م ، دار المعارف – مصر .

(٢) – ينظر شرح القصائد العشر للتبريزي بتحقيق الإمام محمد الخضر حسين ص١٧ ، الطبعة الأولى ٢٠١٣م ، دار الصديق للعلوم ، دمشق ، كما ينظر الديوان بتحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ص٨ .

(٣) – ينظر لسان العرب لجمال الدين بن منظور ، كتب ٣٨١٦/٥ ، دار العارف ، مصر، ١٩٧٩م .

وإما من غير تأويل؛ باعتبار أن المنزل من الألفاظ التي تذكر وتؤنث، يقال: هذا منزل فلان ، وهذه منزل فلان ، كما يقال هذا سبيل، وهذه سبيل(١)، وتأكيد هذا من ورود اللغة بتذكير اللفظة نفسها وتأنيثها ، قال الشاعر:

منزلة أخرى تقادم عهدها بذي الرمث يعفوها صَبا وشَمُولُ(٢).

وإنما أوثر الضمير المؤنث دون المذكر ؛ لأنه الأكثر موافقة لمقام الضيق؛ بسبب البكاء من ذكرى الحبيب والمنزل ؛ لما في امتداد النفس بصوت الألف – باعتبار – من إيحاء بطول الزفرات ، وامتداد العبرات ، من عمق الأسى وشدة الحزن الذي جثم على صدره، وخيم على نفسه من هذه الذكرى؛ فإن الألف اللينة هي أطول حروف المد صوتا(٣).

ولعله – باعتبار آخر – يخفف عنه شيئا من أحزانه وآلامه ، وينفس عنه بعضا من أناته وآهاته التي كان مبعثها ذكرى الحبيب والمنزل .

والنكتة من تقييد النكرة بالنعت على هذا الوجه هو بيان المنعوت وإيضاحه؛ لما فيه من نوع إجمال وإبهام تتطلع معه النفس إلى الكشف والبيان؛ لتتعانق هذه القيود المذكورة من النعت السابق الماثل في الجملة المنفية، والجار والمجرور: "بسقط اللوى"، وظرف المكان: "بين الدخول" المعطوف عليه نسقا قوله: "فحومل فتوضح فالمقراة" على تقرير وتأكيد طلبه

---

(١)- ينظر الكشاف للزمخشري ٥٠٨/٢ ، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م ، دار الريان للتراث ، القاهرة، كما ينظر لسان العرب لابن منظور ، نزل ٤٣٩٩/٦-٤٤٠٠ .

(٢) – ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص٢٣ ، والبيت لابن ميادة وهو في ديوانه ص١٨٤ ، تحقيق : د/ حنا جميل حداد ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٢م .

(٣) – ينظر سر صناعة الإعراب لابن جني ٢١/١ – الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية بيروت ، كما ينظر الأصوات اللغوية ص١١١ ، د/ إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠١٣م.

السابق في مطلع المعلقة: "قفا نبك"؛ لأن تعددها وتنوعها على هذا النحو، ووقوعها في إثر الطلب السابق هو الأبعث لشجنه، والأهيج لحزنه .

ويجوز أن تكون الجملة المنفية – من وجه ثالث– مستأنفة استئنافا بيانيا، على تقدير خروج الكلام مخرج السؤال والجواب، علي أن الجملة لا محل لها من الإعراب ، كأن سائلا سأل: ما شأن هذه المنزل الكائنة بسقط اللوى، ذلك المكان الواقع بين هذه المواضع المذكورة، وما قصته؟ ، لما يكتنف هذا الشأن من نوع غموض وإبهام، وظلال شفيفة، تثير في النفس هذه الحركة الموارة، والتطلع للمجهول، فقيل: " لم يعف رسمها"؛ جوابا عن هذا المقدر وقوعه في أنفس المستمعين ، وحينئذ يكون اتصال الجملة المنفية بما قبلها اتصالا داخليا من خلال تلك الحركة النفسية المقدرة ، وذلك على العكس من الوجهين الأولين؛ فإن ارتباطها بما قبلها فيهما كان ارتباطا خارجيا من خلال وسائل الربط المعهودة، ولكل وجاهته، ولكل أثره في تنامي الدلالة البلاغية وتصاعدها، وفي تقرير المعنى، وتصوير الغرض المقصود.

والرسم: هو الأثر بلا شخص ، وجمعه أرسم ورسوم، كما يقال أبحر وبحور في جمع البحر، ومعنى "لم يعف" : لم يدرس، يقال: عَفَا الأثر يَعْفُو عَفْوًا وعُفُوًّا وعَفَاءً لم يدرس، فآثار هذه المنزل باقية لم تدرس، وإنما كان ذلك كذلك؛ لاختلاف هاتين الريحين: " جنوب وشمأل " عليها، ولو دامت عليها ريح واحدة لعفت؛ لأن الريح الواحدة تسفي على الرسم فيدرس، وإذا اعتورته ريحان فسفت عليه إحداهما فغطته، ثم هبت الأخرى كشفت عن الرسم ما سفته الأولى، وهذا هو أوجه المعاني المذكورة في تفسير الجملة المنفية، وأقربها إلى القبول(١)؛ بدلالة اختيار الأصمعي له (٢)، وكذلك الأعلم

---

(١) – ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص٢١ .

(٢) – ينظر شرح القصائد العشر للخطيب التبريزي ص١٨ ، تحقيق : الإمام محمد الخضر حسين.

الشنتمري[1]، وبدلالة النص في سياق الكلام بعد على علة عدم العفاء صراحة؛ في قوله: " لما نسجتها من جنوب وشمأل"، وبدلالة تسمية الموضع قبل في سياق الكلام منزلا في قوله:" من ذكرى حبيب ومنزل "، فإن في هذه التسمية دلالة على قيامه، واستمرارية بقائه.

وإنما آثر الشاعر أداة النفي " لم " دون غيرها؛ لأنها الأبلغ في هذا السياق؛ لما لها من خاصة الدخول على الفعل المضارع ، وقلب معناه إلى المضي، فيعم النفي ويشمل الأزمنة الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل، فهذه الدار أو المنزل لم يندرس أثرها، ولم يمح رسمها في الماضي، والحاضر، وسيظل شاخصا مستعصيا على عوامل الفناء في المستقبل، وهذا في مقام طلب البكاء أوفق، وبمقتضى الحال ألصق؛ لأنه – من وجه – أهيج للذكرى، وأبعث للشجن في قلب الشاعر وصاحبيه؛ لدلالته على جدة الأثر، وقرب العهد، وهو ما يستلتزم البكاء المأمور به على وجه الالتماس في مطلع المعلقة: " قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل "، وهو ما يشهد به الواقع ويتطابق مع مقتضى طبيعة الفطرة الإنسانية، وهذا ما قرره علماؤنا، خلافًا لما أورده الباقلاني في إعجاز القرآن على هذه الجملة من نقد بدا أثر التعسف فيه ظاهرًا[2].

ودلالته – من وجه آخر – على بقاء هذه الذكرى أو المنزل ودوامها، وانطباعها أو انطباع آثارها في مخيلة الشاعر ووجدانه ، وعدم اندراسها في قلبه، وهذا من شيما الوفاء، وصفات الأوفياء ، وديدن المحبين والعشاق.

---

(١) – ينظر أشعار الشعراء الستة الجاهليين للأعلم الشنتمري ٢٩/١ ، تحقيق : لجنة إحياء التراث العربي ، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت .

(٢) ينظر إعجاز القرآن للباقلاني ص٢٠٣، ٢٠٤، تحقيق/ د. عبد المنعم خفاجي، الطبعة الأولى ١٩٩١م، دار الجيل، بيروت، كما ينظر الإعجاز البلاغي. دراسة تحليلية لتراث أهل العلم د/ محمد أبو موسى ص٢٨٥، ٢٨٦، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م، مكتبة وهبة، القاهرة.

وهو الذي يبعث – من وجه ثالث – الأمل في نفس كل إنسان حي ، ويدفعه إلى ممارسة حيوية الحياة ، واستشعار لذتها ومتعتها ، وخوض لجة المغامرة ، والإصرار على التواصل مرة أخرى ، وكذا السعي الدؤوب لتحقيق غاياته وأهدافه دون يأس أو ملل ، أو كلل وفتور ، ومجابهة عوامل المعاناة والضعف ، وتلافي السلبيات المحبطة ، وإلا فهل يمكن أن يموت الأمل في قلب الإنسان ؟ أو تمحى الغاية التي من أجلها يحيا [1] ؟

وأما الموضع الثاني:

إِذا ما بَكى مِن خَلفِها اِنصَرَفَت لَهُ ... بِشِقٍّ وَتَحتي شِقُّها لَم يُحَوَّلِ

فإن الجملة المنفية فيه ، وهي قوله: "لم يحول" قد تنوعت مواقعها، وتعددت وجوهها بما يثري الدلالة، ويعانق المعنى والغرض؛ إذ خرجت – باعتبار– مخرج الإيغال ؛ بقرينة وقوعها في ختم البيت، وتمام المعنى قبلها من دونها.

وتأكيد هذا من مجيئها في سياقها في موقع الفضلة؛ إذ هي حال من الضمير المضاف إليه المبتدأ في قوله: " وتحتي شقها " في الجملة السابقة.

وقد جاء الشاعر بهذا الإيغال ؛ ليفيد به معنى زائدا على أصل المعنى المراد، وهو المبالغة في تحقيق غاية اقتداره ، ونهاية تمكنه من هذه المرأة، المدلول عليه من قوله: "وتحتي شقها"، والدلالة على بلوغه منها أقصى ما يريده الرجل من المرأة في لحظة تواصل مادي ، يبدو مظنة التحقق الوجودي، وبخاصة حين يعتلي الجسد فيه الجسد.

وخرجت –باعتبار آخر– مخرج التذييل المقرر والمؤكد لمضمون الجملة قبله: "وتحتي شقها"؛ إذ مضمونهما شيء واحد ، وإن كان هذا التذييل من النوع الذي لا يجري مجرى المثل؛ لعدم إمكان استقلاليته بالإفادة؛ إذ يرتبط في دلالته بالجملة السابقة عليه ارتباطا وثيقا؛ ليتعانق التذييل والمذيل على تصوير فرط سطوته على تلك المرأة، وشدة هيمنته عليها.

---

(١) ينظر كلاسيكيات الشعر العربي ، المعلقات العشر ، دراسة في التشكيل والتأويل . د/ صلاح رزق ٦٩/١ وما بعدها ، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م ، دار غريب للطباعة والنشر ، القاهرة .

وتأكيد هذا الوجه من رواية أبي عبيدة الجملة المنفية على هذا النحو: "لم يحلحل"، أي: لم يحرك[١]؛ فإنها ظاهرة الدلالة على هذا الوجه، والله أعلم.

ويجوز – باعتبار ثالث – أن تنزل الجملة المنفية من الجملة قبلها منزلة التوكيد اللفظي، وذلك على طريقة الفصل لكمال الاتصال[٢] على أن الجملة المنفية لا محل لها من الإعراب، وقرينة هذا من مجيئها مفصولة غير معطوفة، وهذا تأكيد للكلام على تأكيد، واستقصاء للمعنى من جميع وجوهه، وهذا – أيضا – من ثراء الدلالة، وسعة العطاء، وعمق الإيحاء الذي يتسم به شعر امرئ القيس عموما وشعر المعلقة على وجه الخصوص.

على أن الذي يعاود الجملة المنفية بالتأمل مرة أخرى يثير اهتمامه أن الفعل المنفي قد بني للمفعول، وحذف فاعله، وهذا إلى جانب دلالته على تعين الفاعل؛ بقرينة ذكره في الجملة السابقة، وانسجامه مع الإيقاع العام، والجرس الموسيقي في القوافي التي بنيت على روى اللام المكسورة يعكس– بمعونة القرائن السياقية– تجاهل الشاعر لإرادة المرأة، وعدم اعتداده بمشاعرها، أو تقديره لعاطفة الأمومة عندها.

وتعضيد هذا التوجه في التحليل من قرينة السياق في قوله: " انصرفت له بشق " فقد تحولت المرأة لطفلها بشقها الأعلى ، المتضمن وسائل الإدراك من السمع ، والبصر ، والعقل، والصدر ، وما ترمز له هذه الحواس والوسائل والآلات من مقومات العطاء الإنساني، ودفء المشاعر والأحاسيس، فلا يتبقى للشاعر الذي يزعم أنه نال أقصى المنال، ويدل بذلك على مخاطبته عنيزة إلا جثة أو شبه جثة مادية في حالة هي أقرب إلى الموات منها إلى الحياة[٣].

---

(١) – ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص٤٢.

(٢) – لا تعارض بين هذه الأوجه الثلاثة ؛ إذ كل منها باعتبار مخصوص ؛ فكمال الاتصال باعتبار العطف وعدم العطف ، والإيغال باعتبار وقوع الجملة المنفية فضلة في ختم البيت؛ لتفيد فائدة زائدة على أصل المراد ، وأما التذييل فباعتبار أن مضمون الجملتين شيء واحد ، وإن كان التذييل أعم من الإيغال وكمال الاتصال . ينظر شروح التلخيص ٢٢٥/٣ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ .

(٣) – ينظر كلاسيكيات الشعر العربي ، المعلقات العشر . د/ صلاح رزق ١٨٦/١ .

فإذا تجاوز البحث الموضع الثاني إلى الثالث، وهو قوله :

وَيَوماً عَلى ظَهرِ الكَثيبِ تَعَذَّرَت   عَلَيَّ وَآلَت حَلفَةً لَم تَحلَّلِ

ليرصد ما ترتب على الجملة المنفية: " لم تحلل " في موقعها من البيت من أسرار الدلالة، وثراء المعنى ، فإن المثير للاهتمام أن الجملة المذكورة وقعت هي الأخرى في قافية البيت ، كالجملة المنفية في الموضع السابق وقد خرجت بهذا الاعتبار مخرج الإيغال – أيضا–؛ للمبالغة في توثيق اليمين المحلوفة المدلول عليها من قوله : " وآلت [١]حلفة " وتغليظها، وتحقيقها وتشديدها، والدلالة – على نحو مقرر ومؤكد – على أن هذه المرأة [٢] التي تعذرت على الشاعر وامتنعت منه جادة في الأمر، عازمة على صرمه وهجره.

---

(١) – آلت : بمعنى : حلفت ، يقال : ألي يؤلى ، إيلاء وألية ، وألوة ، وألوة ، ونصب " حلفة " على المصدر ؛ لأن معنى آلى : حلف ، والعرب تقول : هو يدعه تركا ، ينظر شرح القصائد التسع المشهورات للنحاس ص٢٤ ، تحقيق/ أحمد خطاب، دار الحرية، بغداد ١٩٧٣م، وشرح المعلقات السبع للزوزني ص٤٠ ، تحقيق: محمد إبراهيم سليم ، دار الطلائع ، القاهرة ٢٠١٤م .

(٢) – هذه المرأة: قيل: هي عنيزة التي تقدم ذكرها في الأبيات السابقة قبل هذا البيت من المعلقة، وقيل: هي امرأة أخرى غيرها، إلا أن طبيعة المعنى وخصوصية الموقف المصور، وقرائن السياق وعناصره ترجح أن يكون المقصود امرأة أخرى غير عنيزة، وهي فاطمة التي ورد ذكرها في إثر هذا البيت مباشرة: "أفاطم مهلا بعض هذا التدلل"؛ فهي التي تأبت عليه، وعزمت على صرمه، وهي التي خاطبها خطاب المتودد المتلطف، أما عنيزة فما ورد في حديثها قبل ذلك من أنه اقتحم عليها خدرها، واعتلى معها إلى هودجها، وارتشف من وردها وقبلاتها يبعد أن تكون هي المقصودة في هذا البيت، وتأكيد هذا من مخالفة النسق في بناء العبارة في مطلع البيت لما كان قبله؛ بقطع: "ويوما" ونصبه منونا؛ لتفخيمه وتهويله، وتكبيره وتعظيمه، والدلالة على أنه ليس كأيامه السابقة مع العذارى، أو مع عنيزة ، أو أيامه التي كانت بدارة جلجل، أو غيرها من أيامه =الصالحات . ينظر الشعر الجاهلي. دراسة في منازع الشعراء . د/ محمد أبو موسى ص٥٤، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م ، مكتبة وهبة، القاهرة، وكلاسيكيات الشعر العربي . المعلقات العشر. د/ صلاح رزق ١/١٨٧ .

وتأكيد هذا من وقوع الجملة المنفية فضلة في ختم البيت ؛ لتفيد معنى زائدا علي أصل المراد؛ إذ هي نعت مبين ومؤكد للنكرة في الجملة السابقة عليه ، وهي المصدر " حلفة " المنصوب على المفعولية المطلقة؛ فإن الفعل " آلى "– كما سبق بيانه– في معنى حلف.

وخرجت – باعتبار آخر – مخرج التذييل المقرر والمؤكد لمضمون الجملة قبله؛ إذ هما في معنى واحد ، إلا أنه من النوع الذي لا يجري مجرى المثل ؛ لعدم إمكان استقلاليته بالإفادة ؛ لشدة ارتباطه بما قبله ، وتوقف فهم معناه عليه.

وخرجت – باعتبار ثالث – في تقرير غاية جدها ، وتأكيد قوة عزمها على صرمه وهجره – مخرج الترقي من الأدنى إلى الأعلى فالأعلى ؛ فبدأت بما هو أخفى دلالة في هذا المعنى وهو امتناعها عنه ، وتأبيها عليه ، المحكي في قوله: " ويوما على ظهر الكثيب تعذرت علي " ثم ترقت منه إلى ما هو أقوى وأظهر دلالة في ذلك ، وهو عقدها يمينا على إنفاذ عزمها وإمراره في قوله: " وآلت حلفة"، ثم ارتقت إلى الغاية في تمكين المعنى ، وتشديد الأمر ؛ بتغليظ اليمين السابقة وتوثيقها؛ بنفي التحلل منها جملة وتفصيلا، كما دلت عليه الجملة المنفية في قوله: " لم تحلل ".

ومعنى: "لم تحلل"، أي: "لم تستثن"، قال الشراح: لم تقل: "إن شاء الله[(١)]"، وإنما أدخل الشاعر أداة النفي "لم" على الفعل من مادة التحلل خاصة، دون لفظ الاستثناء؛ لأنه الأبلغ في إبراز شدة إصرارها، وفرط عزمها على صرمه وهجره، الأوفى في تصوير غاية أخذها الأمر على محمل الجد؛ لما تتسم به هذه اللفظة من اتساع الدلالة وعمومها ، كأن هذه المرأة أرادت أن تقرر لديه أنها لن تتحلل من هذه اليمين المغلظة بأي نوع من أنواع التحلل

---

(١) – ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص٤٢ ، وشرح المعلقات السبع للزوزني ص٢١ ، وشرح القصائد العشر للتبريزي ص٤٠ .

التي منها الاستثناء ؛ لتتعانق هذه الوسائل السابقة جميعا من الإيغال والتذييل، والترقي، ومادة الفعل المنفي على إثراء الدلالة وتعميقها، وتصوير تنامي وجدها، وتصاعد انفعالها وغضبها المكني عنه بالجمل الثلاث التي انتظمها البيت موضع البحث، حتى آلت على هجره، وعقدت العزم على صرمه.

فإذا انتقلنا من الموضع الثالث إلى الموضع الرابع الذي برز في قوله :

وَيُضحي فَتيتُ المِسكِ فَوقَ فِراشِها نَؤومُ الضُحى لَم تَنتَطِق عَن تَفَضُّلِ

للبحث في موقع الجملة المنفية: "لم تنتطق عن تفضل"، وإظهار أثره في تعميق الدلالة البلاغية وإثرائها فإن اللافت للنظر أن هذه الجملة وقعت في موقع العلة من الجملة السابقة عليها وهي "نؤوم الضحى" التي أثارت في نفوس المستمعين تساؤلا عن سبب هذا الحكم الغريب وعن علته؛ إذ كيف لها أن تنام إلى الضحى، ألا تباشر عملا، وتزاول مهنة بيتها؟ فجاءت الجملة المنفية مفصولة غير معطوفة؛ على طريقة الاستئناف البياني – شبه كمال الاتصال –؛ لتجيب عن هذا المقدر وقوعه في أنفس المستمعين ، وتكشف عن سبب الحكم السابق، وتميط اللثام عن علته، فتَقَرَّرَ المعنى في ذهن السامع، وتَأَكَّدَ الحكم في وجدانه.

ويجوز– باعتبار آخر– أن تكون الجملة المنفية في موقع التذييل المقرر والمؤكد لمضمون ما قبله(١)؛ لأن نومها إلى الضحى من لوازم عدم انتطاقها للمهنة والعمل، وحينئذ يكون الفصل بين الجملتين لكمال الاتصال بينهما؛ لتنزل الجملة المنفية منزلة التوكيد أو البيان من سابقتها، وإن كان الوجه الأول هو الأقوى والأظهر؛ لأن مبنى النسق من أول البيت على العلية، وإثارة السابق في أنفس المستمعين تساؤلا، يأتي اللاحق جوابا عنه، وبيانا لسببه.

---

(١) – وهذا التذييل من النوع الذي يمكن أن يجري مجرى المثل في الأحداث والمواقف المشابهة؛ لإمكان استقلاليته بالإفادة.

ومن وجه ثالث فإن الجملة المنفية تتعانق في موقعها مع ما سبقها من جمل في نسق البيت – وعلى طريق الكناية خاصة – على تصوير شدة الترف ، وفرط التنعم ، والعيش الرخي الذي ترفل فيه هذه المرأة ، وأنها مصونة غاية الصون ، ومكرمة غاية الإكرام .

ووراء هذه الكناية في سياقها – من وجه رابع بدلالة المفهوم – تعريض قوي بثراء قوم هذه المرأة وغناهم ، ونداء على الوفر الذي يعيشون فيه ، وأن هذه المرأة تتمتع من هذا الوفر بما لا تتمتع به أكثر النساء(١).

والانتطاق : الائتزار للعمل ، والنطاق : ثوب تشده المرأة على وسطها للمهنة والعمل ، والتفضل : التوشح ، وهو لبسها أدنى ثيابها ، أراد أنها تكفي أمورها ، فلا تباشر عملا بنفسها؛ لأن لها من يخدمها ويقوم على أمرها (٢) .

ومن اللافت للنظر أن الشاعر آثر أداة النفي " لم " خاصة وأدخلها على الفعل المضارع، وهذا من عبقريته ؛ لأن هذا هو الأكثر موافقة لمقام الغزل ، الأشد مطابقة لمقتضى حال هذه المرأة في الترف والتنعم ؛ إذ هو الأقوى في تصوير غاية ترفها وشدة تنعمها ، والأدخل في تجسيد فرط دلها ودلالها؛ لدلالته على أنها مترفة منعمة أبدا ، وأنها لم تشد النطاق يوما على وسطها لتعمل في الماضي ، وليس من شأنها أن تفعله في الحاضر والمستقبل ، فالمعنى على اتصال المنفي ودوامه ، وعدم انقطاعه.

ومن اللافت للنظر – أيضا – أن الجملة المنفية قد خلت من جميع المؤكدات الظاهرة؛ وذلك اعتبارا بمقام الغزل ، ووصفها بشدة الترف ، وفرط التنعم، كأن عدم انتطاقها للخدمة والعمل هو المعلوم من أمرها ، المشهور من مقتضى حالها، وليس بموضع يتطرق إليه شك واحتمال، أو رفض وإنكار.

---

(١) – ينظر الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء . د/ محمد أبو موسى ص٨٢ .

(٢) – ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص٦٦ ، وشرح المعلقات السبع للزوزني ص٣١ .

والمجرور: " عن تفضل " متعلق بالفعل " تنتطق " ، و" عن " فيه بمعنى " بعد " [١]، وإنما وضع الشاعر حرف المجاوزة موضع الظرف ؛ لأنه الأكثر وفاء بمعناه ، وتصويرا لغرضه، وأنها مكرمة غاية التكريم ومنعمة غاية التنعيم ؛ لقوة انسجامه في هذا الموضع مع مضمون أداة النفي المستعملة ؛ لدلالته على أنها لم تعمل قط ، وليس من شأنها أن تعمل ، فهي لم تنتطق لتعمل بعد التفضل.

أما الموضع الخامس والسادس فقد جاءا متتابعين في سياق وصف امرئ القيس الفرس وهو بصدد رحلة صيد ناجحة في قوله:

فألحقنا بالهاديات ودونه　　　جواحرها في صرة لم تزيل.

وقوله: فعادي عداء بين ثور ونعجة　　　دراكا ولم ينضح بماء فيغسل.

لتتعانق الجملتان المنفيتان : " لم تزيل – ولم ينضح بماء فيغسل " على تصوير عتق الفرس ونجابته، وتأكيد كرم أصله وتميزه ، وتجسدا فرط سرعته، وفائق قدرته واقتداره على اللحاق بالصيد في طلق واحد ، دون أن يكلفه ذلك كثير عرق، أو كبير جهد ومشقة.

أما الجملة المنفية الأولى " لم تزيل " ؛ فقد جاءت في موقعها إيغالا بليغا؛ للمبالغة في تحقيق وتقرير اجتماع المتأخرات والمتقدمات من هذه البقر الوحشي اللائي يطاردهن الشاعر بفرسه، المدلول عليه من قوله: " في صرة " أي: جماعة، " لم تزيل " أي : لم تتفرق ؛ لتكون هذه النكتة وسيلة لخط صورة واضحة المعالم، وبارزة القسمات لقوة الفرس واقتداره ، وتفرده وتميزه ، بتصوير إحاطة هذا الفرس النجيب بجماعة الذكور والإناث من البقر الوحشي، وتمكنه منها ، وتقييده إياها، حتى أدرك المتقدمات منها والمتأخرات في طلق واحد، وقبل أن تتفرق أو تتشتت جماعتها ، والجملة بهذه الدلالة تتناغى مع وصف

---

(١) – ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص٦٦ ، وشرح المعلقات السبع للزوزني ص٣١ .

الفرس – أولا – بقيد الأوابد في قوله: " بمنجرد قد الأوابد هيكل " وتعود إليه؛ إذ هي كالتفصيل لإجماله، والإيضاح لإبهامه.

وقرينة عد الجملة إيغالا؛ اعتبارا بوقوعها فضلة في ختم البيت ؛ لتفيد نكتة زائدة على أصل المعنى المراد ، هي تحقيق معنى اجتماع هذه البقر وتقريره، وتثبيته وتمكينه ؛ إذ الجملة المنفية نعت للنكرة: " صرة " ؛ لما هو معلوم من أن الجمل بعد النكرات صفات، وبعد المعارف أحوال.

وأما الجملة المنفية الثانية: " ولم ينضح بماء فيغسل " فإن الشاعر لم يقصد إلى نفي العرق جملة وتفصيلا؛ إذ لا يتأتى هذا بحال، لا سيما وقد وصف الشاعر فرسه في بائيته المشهورة بالعرق، وقرر فيها أن فرسه إذا جرى طلقين ابتل بالعرق، قال:

إِذا ما جَرى شَأوَينِ وَابتَلَّ عِطفُهُ تَقولُ هَزيزُ الريحِ مَرَّت بِأَثأَبِ[1].

وهذا يعني أنه لا يرى العرق عيبا، وإنما العيب الذي نفاه في الجملة موضع البحث أن يغسل بهذا العرق؛ لأن هذا لا يكون عن جلادة، وفضل قوة وشدة[2].

ويجوز أن يكون المقصود بالمنفي من الغسل المعطوف نسقا على المنفي من النضح هو الغسل بالماء القراح ، على أن يكون المعنى : لم يصبه وسخ العرق وأثره ، حتى يحتاج للغسل بالماء[3].

وسواء أكان الغرض المقصود هذا أو ذاك فإن الجملة المنفية خرجت في موقعها– باعتبار[4]– مخرج التبليغ من أقسام المبالغة في علم البديع؛ لأن كلا المعنيين ممكن في العقل والعادة .

---

(١) – ديوان امرئ القيس ص٤٩ .

(٢) – ينظر الشعر الجاهلي . دراسة في منازع الشعراء . د/ محمد أبو موسى ص١٢٥ .

(٣) ينظر شرح القصائد العشر للخطيب التبريزي بتحقيق الإمام محمد الخضر حسين ص٧٥ .

(٤) – اعتبار المضمون .

وخرجت – باعتبار آخر[١] – مخرج الحال من الضمير المستكن في " دراكا" لتتعانق الحال مع التبليغ في تصوير مهارة هذا الفرس ، والتأكيد على شدة جلده ، وغاية قوته واقتداره، وفرط تميزه وتفرده ، وبالغ سرعته التي استطاع بها أن يصيد السابقات والمتأخرات من بقر الوحش، ذكورا وإناثا في طلق واحد، ومن دون أن يجهد نفسه أو يعنيها، ومن دون أن يبتل جسده من كثرة العرق المفضي إلى الغسل بنفسه، أو بالماء القراح.

وتأكيد هذا كله – أولا – من طبيعة المقام المصور؛ فإن نفي العرق عن الفرس جملة وتفصيلا ينافي مقام وصف هذا الفرس بالعتق والنجابة، والكرم والأصالة، والقدرة والاقتدار، والتميز والتفرد؛ فإن ثبوت العرق له على نحو متوازن من أمارات صحته وقوته، ودلائل متانته وجلادته.

وتأكيده – ثانيا – من عناصر السياق وقرائنه ؛ بدلالة تسليط النفي على الفعل من النضح خاصة: "ولم ينضح" ؛ إذ هو المفضي إلى كثرة العرق الذي يكون الفرس فيه كأنه قد غسل، أو طلب الغسل منه، وليس مطلق العرق[٢].

ومن أمارات العبقرية لدى الشاعر، ووعيه التام بطبيعة الألفاظ المعبر بها أنه آثر الفعل المنفي من النضح " دون النضخ "؛ إذ النضح أضعف من النضخ، وأقل منه معنى ؛ لدلالته على الفوران القليل الذي يشبه الرشح شيئا فشيئا ، بخلاف النضخ[٣]؛ لتتناغي هذه اللفظة وتتناسب في موضعها مع طبيعة العرق المنفي وخاصته التي تكون شيئا فشيئا.

وبدلالة عطف الفعل من الغسل: "فيغسل" على الفعل المنفي من النضح؛ فإنه ظاهر الدلالة على أنه لم يقصد إلى نفي العرق من أصله ، وإنما قصد إلى نفي العرق الكثير الذي يكون الفرس فيه كأنه غسل، أو المفضي به إلى

(١) – اعتبار الموقع .

(٢) – ينظر الشعر الجاهلي . دراسة في منازع الشعراء ص١١٩ .

(٣) – ينظر الخصائص لابن جنى ١٥٨/٢، تحقيق : محمد علي النجار، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٦م .

الغسل، ولو قصد إلى نفي العرق من أصله لاكتفى بقوله: "ولم ينضح بماء"، أو قال: "ولم يعرق"(١).

وبدلالة قوله في نسق المعلقة قبل الأبيات موضع البحث أو بعدها ، حسب اختلاف الروايات:

كَأَنَّ دِماءَ الهادِياتِ بِنَحرِهِ عُصارَةُ حِنّاءٍ......(٢).

وإنما تصير الدماء عصارة حناء حين يخالطها يبيس العرق الأبيض خاصة(٣).

على أن مما تتجلى به عبقرية الشاعر في بناء الجملة المنفية إيثاره – من وجه – أداة النفي " لم " خاصة ، وإدخالها على الفعل المضارع ؛ ليفيد بذلك استمرارية نفي النضح المفضي إلى كثرة العرق الذي يقتضي الغسل ، أو يكون الفرس فيه كأنه قد غسل ، فليس هذا من شأنه في الماضي ، وليس من شأنه في الحاضر والمستقبل –أيضا–.

كما تتجلى– من وجه آخر– في بناء الفعل الذي دخلت عليه " لم" للمفعول، دون الفاعل؛ احترازا عن نسبة النضح المنفي إلى الفرس على وجه صريح، أو أن يكون هو الفاعل له أصالة.

وفيه– كذلك– دلالة على أن النضح المفضي إلى كثرة العرق هو أمر خارج عن طبيعة هذا الفرس وسمته (٤)؛ لتتعانق كل هذه الوسائل المذكورة على تعميق الدلالة وإثرائها، وتصوير ملامح التفرد والتميز، والعتق والنجابة، والسرعة والمهارة التي يتحلى بها هذا الفرس، وتتشكل منها صفاته وشمائله.

(١) – ينظر الشعر الجاهلي . دراسة في منازع الشعراء . د/ محمد أبو موسى ص١١٩ .

(٢) – ديوان امرئ القيس ص٢٣ .

(٣) – ينظر الشعر الجاهلي . دراسة في منازع الشعراء ص١١٩–١٢٥ .

(٤) – أما بناء الفعل " فيغسل " للمفعول ، وحذف الفاعل فلتكثير الفائدة من الكلام ، بحمله على محامل شتى ووجوه متنوعة، كما سبق بيانه وتفصيله ، وطردا للنسق على شاكلة واحدة .

وأما الموضع السابع والأخير، وهو قوله:

وَتَيماءَ لَم يَترُك بِها جِذعَ نَخلَةٍ   وَلا أُجُماً إِلّا مَشيداً بِجَندَلِ

فقد استغرقت الجملة المنفية فيه، وهي قوله: " لم يترك بها جذع نخلة ولا أجما ......" معظم البيت ؛ نظرا لتعدد قيودها وكثرة متعلقاتها .

والمتأمل في هذه الجملة يثير اهتمامه أن تعدد مواقعها، وتنوع محاملها باعتبارات مختلفة قد تعانق كله على إثراء الدلالة وتعميقها، وتكثيف المعنى المقصود وتصويره، وتثبيته وتمكينه؛ ابتداء بوقوع الجملة المذكورة في موقع الحال من " تيماء" التي يرمز بها إلى أمهات القبائل العربية، وراسخ منازلها القديمة، وهذا الوجه يجري باعتبار أن الجملة المنفية لها محل من الإعراب، واتصال لفظي بما قبلها.

وتأكيد هذا التوجه في التحليل من الضمير المجرور في " بها " والذي يعود إلى " تيماء "؛ فقد كان وسيلة لربط الحال بصاحبها، واتصالها به .

وتثنية بتنزلها منزلة الاستئناف البياني – شبه كمال الاتصال–، على أن الجملة لا محل لها من الإعراب، باعتبار أنها جواب عن سؤال أثاره الكلام السابق عليها، وحينئذ يكون اتصال الجملة بما قبلها اتصالا معنويا، عن طريق تلك الحركة النفسية المقدرة ؛ بسبب ما يلف الكلام السابق عليها من غيوم رقيقة، وظلال شفيفة، تثير في الوجدان هذه الحركة، وتقذف في القلب هذه النوازع المستكنة.

وتأكيد هذا الوجه مما ذكره الشراح [١] من أن " تيماء " خفضت نسقا على " القنان " في البيت السابق:

وَمَرَّ عَلى القَنَانِ مِنْ نَفَيَانِهِ   فَأَنْزَلَ مِنْهُ العُصْمَ مِنْ كُلِّ مَنْزِلِ[٢].

---

(١) – ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليا ت ص١٠٦ .

(٢) – ينظر شرح القصائد التسع المشهورات لأبي جعفر النحاس ١/١٩٤ ، تحقيق : أحمد خطاب ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٩٧٣م .

وحينئذ يكون تقدير الكلام : " ومر على تيماء "، وهو ما يثير في أنفس المستمعين تساؤلا، كأنه قيل : فماذا فعل بها حين مر عليها ؟ ، فقيل : لم يترك بها جذع نخلة .... جوابا عن هذا الذي قدر وقوعه في أنفس المستمعين.

وقرينة هذا التوجه ما ذكره الشاعر من النتيجة المترتبة على مرور السيل على القنان في البيت السابق، في قوله: " فأنزل منه العصم من كل منزل " ، فإنه ظاهر الدلالة على هذا الوجه، فأجرى الكلام في البيت موضع البحث على لفق الكلام وشكله في البيت السابق؛ تحقيقا لنوع من التوافق والانسجام في الهيئة والشكل في نسق المعلقة.

ومرورا بوقوع الجملة المنفية في موقع التذييل للجملة السابقة ؛ باعتبار أن مضمونهما شيء واحد، وقد جاءت الثانية مقررة ومؤكدة للأولى ، وإن كان هذا التذييل من النوع الذي لا يجري مجرى المثل؛ لشدة ارتباطه بما قبله ، وعدم إمكان استقلاليته بالإفادة .

وانتهاء بتنزلها مما قبلها منزلة عطف البيان لها ؛ باعتبار الفصل وترك العطف؛ لما بينهما من كمال الاتصال ؛ فكأن الثانية هي نفس الأولى ، وقد أرادها الشاعر أن تجيء مفصلة لإجمال الأولى ، مبينة لإبهامها ، كاشفة لغموضها.

وهذا الوجه وسابقه لا يتأتيان إلا باعتبار الوجه الذي ذهب إليه بعض الشراح من أن " تيماء " جاءت في مستهل البيت منصوبة على الاشتغال ؛ على أن تقدير الكلام: " وهدم تيماء"[(١)]

ويجوز على هذا الوجه الإعرابي– أيضا– أن تكون الجملة المنفية جوابا عن سؤال مقدر أثارته الجملة السابقة، كأن سائلا سأل: كيف هدمها؟ فقيل: لم

---

(١) – ينظر ديوان امرئ القيس بشرح الحضرمي ص٨٥ ، تحقيق : د/ أنور سويلم – د/ على اله ، الطبعة الأولى ١٩٩١م ، دار عمان ، الأردن .

يترك بها جذع نخلة ...البيت؛ لتتعانق هذه الوسائل المذكورة كلها–وعلى وجه المبالغة والتأكيد– على تكثيف الدلالة وإثرائها، وتعميق المعنى وتحقيقه، وتتضافر إلى تصوير قوة السيل وشدته، وتقرير كثرة مائه وطغيانه، حتى بلغ الزبى، وتجسيد فرط سرعته الهادرة التي دمدمت على كل شيء في طريقها فسوته بالأرض، ولم يسلم منها ما كان رمزا في العراقة والقدم، أو رمزا في الرسوخ والثبات.

ومما زاد الدلالة ثراء ، والمعنى قوة وعمقا عناصر البناء وقرائن السياق في الجملة المنفية ؛ ابتداء بإيقاع النفي وتسليطه على الفعل المضارع من مادة الترك خاصة: " لم يترك"؛ إذ هو الأقوى في تصوير قوة السيل ، وتجسيد شدته وعنفوانه؛ لإبرازه السيل في صورة الطالب الغالب ، الباحث عما يأتي عليه من المواضع والأماكن، والأشياء ، فيدركها بقوته، فيصطلمها ويستأصل شأفتها، ولا يبقي منها شيئا، وليس كذلك الشأن لو قال: "وتيماء اقتلع السيل نخلها، وهدم بيوتها"؛ لأن هذا التعبير السابق يصدق لو اقتلع السيل أكثر النخل، ويتحقق لو هدم جل البيوت"(١).

ومرورا بتعدية الفعل المنفي إلى المفعول به الذي أوثر أن يكون " جذع النخلة"، وجذع النخلة معروف بكثرة عروقه وتشعبها ، وتجذرها وامتدادها في باطن الأرض، على نحو يصعب معه أو يكاد أن يستحيل اقتلاعه.

وإنما أضيفت لفظة " جذع " إلى لفظة " نخلة " منكرة ؛ للعموم ، والإبهام على السامع؛ تفخيما للأمر وتهويلا من شأنه ، حتى تذهب النفس في تصور مدى الدمار والهلاك الذي خلفه السيل وراءه كل مذهب ممكن.

وانتهاء بعطف " أجما " – وهي البيوت المسقفة – على المفعول به السابق، وقرينة هذا من إعادة حرف النفي معها ؛ وذلك للتأكيد على أن النفي قد شمل المعطوف والمعطوف عليه في وقت واحد ، وعلى كل حال ، ولدفع

---

(١) – الشعر الجاهلي . دراسة في منازع الشعراء ص١٤٠ .

توهم عدم اجتماعهما في النفي على هذا النحو السابق ؛ حسبما نص عليه العلماء في " لا " المقترنة بالعاطف والمعطوف[1].

وبكون المعطوف السابق اسما منكرا ، وما يتوارى خلف التنكير من دلالة العموم والشمول، وكذا بكون الأداة المستعملة في النفي هي "لا " خاصة؛ إذّ هي التي لها خاصة نفي الأسماء دون " لم " فيحترز بها – من وجه – عن التطويل الذي تترهل به الأساليب لو أعيد ذكر " لم " مع الفعل المنفي الذي دخلت عليه ، ويحترز بها – من وجه آخر – عما يؤدي إلى انكسار الوزن ، واختلال النغم؛ للسبب المذكور ذاته ؛ لتتعانق كل هذه القرائن – كما سبق – على تجسيد قوة هذا السيل الهادر وشدته، وتصوير فرط طغيان مائه وكثرته ، حتى أتى على كل شيء في طريقه ، فلم يعتصم منه جبل، ولم ينج منه وحش، ولم يمتنع منه متجذر في الأرض، ولا متأصل في القدم إلا ما ندر، حسبما ينطق به الاستثناء في قوله: " إلا مشيدا بجندل "وهو ما كان ذا طبيعة خاصة من الجنادل الصلبة الصماء ، فهذه وحدها هي التي يمكن أن تقف في وجه الطوفان، وعرم السيل.

ولعل النكتة التي تكمن في استثناء هذا القليل مما يستعصى على السيل هو المحاولة الحثيثة لإضفاء صبغة من الواقعية والصدق الفني الذي يجعل لإدراك البعد الرمزي قيمة خاصة، ويؤكد البعد الفني الذي يرتهن به الجانب الأكبر من إنجاز الذات الشاعرة.

ومن وجه آخر فإن هذا الاستثناء يمثل رمزا فنيا دقيقا إلى احتدام نوع من صراع البقاء بين مختلف الأجناس ما بقيت الحياة على هذه الأرض، وأن هذا الطوفان أو السيل – باعتباره رمزا دالا – مهما بلغ في طغيانه الزبى، وتجاوز حدود المعقول وغير المعقول يظل التدافع سنة من سنن البقاء، ومظهرا من

---

(١) – ينظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ٢٤٥/١ ، والأشباه والنظائر للسيوطي ٢١٢/١–٢١٣ ، الطبعة الثانية ١٣٥٩ هجرية ، ومعاني النحو .د/ فاضل صالح السامرائي ٢٠٨/٤ .

مظاهر التأبي والاستعصاء على هذا الطوفان ورده خائبا ، بشرط أن يكون البنيان القائم – باعتباره رمزا دالا أيضا – قويا ومتماسكا ، ومشدودا بعضه إلى بعض ، ومؤسسا على أرض صلبة، ومتآلفا من مادة قوية تستعصي على عوامل الهدم وأسباب الفناء.

" المحور الثاني "

" مواقع الجملة المنفية بـ" ما " في معلقة امرئ القيس وأثرها في تعميق الدلالة البلاغية وإثرائها "

لأداة النفي " ما " في الكلام صورتان : عاملة ، وغير عاملة ، فالعاملة هي " ما " الحجازية التي تعمل – بشروط – عمل ليس ، وغير العاملة : هي الداخلة على الفعل ماضيا كان أم مضارعا ، فإذا دخلت على الفعل الماضي بقي على مضيه ، وإذا دخلت على المضارع كان للحال عند جمهور النحويين(١) ، ويجوز أن تخلصه للاستقبال؛ بمعونة القرائن، وهذا ما ذهب إليه ابن مالك(٢).

وهي آكد في النفي وأقوى من " لم " ، و" ليس "؛ بدلالة وقوعها – من وجه – جوابا للقسم ، كما في قوله تعالى: " والله ربنا ما كنا مشركين " (الأنعام :٢٣)، وقوله تعالى : " يحلفون بالله ما قالوا " (التوبة :٧٤)، بخلاف " لم "، و "ليس" فإنهما لا تقعان هذا الموقع.

وبدلالة وقوعها – من وجه آخر – نفيا لقولهم : " لقد فعل ".

فإذا انتقلنا بعد هذا البيان الموجز إلى معلقة امرئ القيس؛ لرصد مواضع الجملة المنفية بـ"ما" فيها، والتأمل في مواقعها؛ للوقوف على مدى إسهامها في إثراء الدلالة البلاغية وتعميقها، وتقريرها وتوكيدها فإن البحث يضع يده من ذلك على أربعة مواضع في ثلاثة أبيات، دخلت " ما " في موضعين منها على الجملة الاسمية، ودخلت في الموضعين الآخرين على الجملة الفعلية ذات الفعل الماضي ، وذات الفعل المضارع ، واقترنت بـ"إن" الزائدة أو النافية في

---

(١) – ينظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ٣٠٣/١ ، والجني الداني في حروف المعاني للمرادي ص٣٢٩ .

(٢) – ينظر شرح التسهيل لابن مالك ٣٨٠/١ ، تحقيق : د/ عبد الرحمن السيد – د/ محمد بدوي المختون ، الطبعة الأولى ١٩٩٠م ، هجر للطباعة والنشر .

موضع واحد منهما، وذلك على النحو الذي سيأتي تفصيله وتحليله لا حقا إن شاء الله تعالى.

أما الموضعان الأول والثاني فقد برزا في قول الشاعر في سياق حديثه عن المرأة المكني عنها ببيضة خدر:

فَقالَت يَمينَ اللهِ ما لَكَ حيلَةٌ وَما إِن أَرى عَنكَ الغِوايَةَ تَنجَلي(١).

حيث دخلت "ما" في الموضع الأول: "مالك حيلة" على الجملة الاسمية، ودخلت في الموضع الثاني "وما إن أرى عنك الغواية تنجلي" على الجملة الفعلية ذات الفعل المضارع.

و"ما" في الموضع الأول هي الحجازية العاملة عمل ليس، على خلاف في ذلك، إلا أن خبرها لما كان جارا ومجرورا ترجح إعمالها على إهمالها، وذلك حسب تفصيل فصله بعض النحويين وصححه ابن عصفور(٢).

وهي في الموضع الثاني النافية غير العاملة ؛ لدخولها على الفعل المضارع من الرؤية، وقد اقترن بها في هذا الموضع "إن" المزيدة أو النافية، على خلاف بين الشراح في ذلك(٣).

أما الموضع الأول فإن دخول "ما" فيه على جملة "مالك حيلة" وتسلطها عليها هو الأبلغ في نفي الحيلة دون غيره؛ لوكادتها في النفي، وقوتها فيه، وقرينة هذا من وقوع الجملة المنفية بها جوابا للقسم السابق في قوله "يمين الله"؛ إذ التقدير: (قسمى يمين الله – أو يمين الله قسمى ، أو على)، وهذا التأويل السابق إنما يجري على رواية الرفع ، أما من رواه : "يمين الله"

---

(١) – ديوان امرئ القيس ص١٤ .

(٢) – ينظر المقرب لابن عصفور ١٠٢/١ ، تحقيق : أحمد عبد الستار الجوادي – عبد الله الجبوري ، الطبعة الأولى ١٩٧٢ ، كما ينظر الجني الداني في حروف المعاني للمرادي ص٣٢٤ .

(٣) – ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص٥٣ ، وشرح المعلقات السبع للزوزني ص٢٥ ، وشرح القصائد العشر للتبريزي ص٤٨ .

بالنصب ، فيجري تأويل الكلام – حينئذ – على نزع الخافض؛ إذ التقدير: حلفت بيمين الله ، ثم أسقط الحرف فتعدى الفعل [١] ، قال صاحب الكتاب: "وإذا قال : (لقد فعل) ، فإن نفيه (ما فعل) ؛ لأنه كأنه قال : (والله لقد فعل) ، فقال : (والله ما فعل)[٢]، وهذا يقتضي أن دخول " ما " على جملة الجواب ، يفيد مضمونها قدرا زائدا من التقرير والتوكيد ، والتثبيت والتمكين، فكما أن القسم، و" قد " من أبرز وسائل التوكيد وأسبابه في الكلام، فكذلك ما جعل جوابا أو نفيا لهما[٣].

ومعنى الجملة: تجيء والناس أحوالي ، وقال ابن حبيب : معناه : لا أقدر أن أحتال في دفعك عني، وقال غيره : معناه : ليس لك حجة في أن تفضحني، وقال آخرون : معناه : ليس لك وجه مجيء إلينا، أو ما لك حيلة فيما قصدت له[٤].

ولا شك في أن إطلاق الجملة بركنيها عن كل قيد –من وجه– يمثل وجها من أوجه الإيجاز الذي يعمل على تكثير الفائدة من الكلام، بحمله على محامل شتى، ودلالات متنوعة.

وتنكير لفظ المسند إليه: " حيلة " – من وجه آخر – وما يتسم به من عموم الدلالة وشمولها مما يتسع – أيضا – لكل هذه الأوجه المذكورة ويحتويها، وهذا من ثراء لغة الشاعر، ونفاذ بصره إلى مواقع الكلام ومراميه.

---

(١) – ينظر شرح القصائد العشر للخطيب التبريزي ص٤٨ .

(٢) – الكتاب لسيبويه ١١٧/٣ ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الثالثة ١٩٨٨م ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .

(٣) – ينظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٥٦٠/١ ، تحقيق . د/ مصطفي ديب البغا، الطبعة الثالثة ١٩٩٦م ، دار ابن كثير ، دمشق ، ومعاني النحو . د/ فاضل صالح السامرائي ١٩١/٤–١٩٣ .

(٤) – ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص٥٣ ، وشرح القصائد العشر للخطيب التبريزي ص٤٨ .

والذي يعاود الجملة المنفية بالتأمل مرة أخرى يجد أنها جاءت مطابقة تمام المطابقة لمقتضى حال المرأة المذكورة من عدة وجوه ، الأول : في غاية رضاها، ونهاية قبولها لما أقدم عليه الشاعر من اقتحام مخدعها ، فالمرأة كأنها تبرر بهذه الجملة المنفية ما هي مقدمة عليه معه، وترمز بها – علي طريق الكناية – إلي عدم اعتراضها أو انزعاجها من هذا الاقتحام المحفوف بالمخاطر والمهالك ، وقرينة هذا من وقوع الجملة المنفية – أيضا – جوابا للقسم السابق في قوله: "يمين الله"؛ إذ تعكس – بوقوعها هذا الموقع – نوعا من اليقين والحكم القائم على رؤية هي ضرب من العلم الشاخص أثره في اللحظة المنبثقة من طبيعة الموقف المصور، ومن مقتضى الحال المستندة إلى الخبرة بالغواية القديمة التي لا أمل في انكشافها، حسبما ينبئ عنه قولها مخاطبة إياه: "وما إن رأى عنك الغواية تنجلي".

والثاني: في اعتقادها غاية تميزه بالجسارة والإقدام ، وقوة القلب ؛ لعزه وشرفه في قومه ؛ بقرينة أنها لم تنكر عليه الاقتحام ، وإنما أنكرت عليه تجاوز الحيلة في اقتحامه مخدعها ، ومجيئه معتدا بقوته ومجده وعزه ، رغم ما يحيط بها من الأحراس ، وأهوال العشيرة ؛ إذ لا معنى لنفي الحيلة في مثل هذا إلا إثبات معنى الجسارة والاقتدار ، والغرور والثقة المفرطة بالنفس(١).

والثالث، وهو مترتب نوعا من الترتب على الوجه الثاني : في فرط تعجبها، وشدة اندهاشها من جسارته ، وطرحه الحيلة ، وإصراره على كل ما هو محفوف بالمكاره والمهالك، وهو يسمع ذلك ولا يرد عليه ، وإنما يمضي لمراده ، وقرينة هذا الوجه من قصر الجملة المنفية وإيجازها إيجازا شديدا؛ إذ يصور هذا القصر حال الدهشة، ويجسد ملامح الاستغراب من وقع المفاجأة التي تشده بها النفس، وتبهت عن إطالة الكلام في مثل هذه المواقف.

---

(١) – ينظر الشعر الجاهلي . دراسة في منازع الشعراء ص٦٥ .

كما جاءت في موقعها أيضًا مطابقة لمقتضي حال الشاعر في القوة والجسارة والتميز والتفرد؛ إذ تفيد أن هذا الاقتحام المحفوف بالمهالك والمكاره هو دأبه الذي لا ينفك عنه ، وعادته الملازمة له، وتأكيد هذا من قرينة السياق؛ بدلالة الجملة المنفية الثانية: "وما إن أرى عنك الغواية تنجلي"؛ فإنها أظهر دلالة وأوضح إشارة إلى أنها اعتادت ذلك منه ، وهذا هو " جوهر ما أراده الشاعر، وهو أن يصور أن هذه الكريمة المصونة التي عليها الأحراس، وأهوال العشيرة قد اعتاد هو أن يجتاز كل هذه الموانع، وأن يصل إليها، وهي قد ألفت ذلك منه واعتادته[1].

ومن اللافت للنظر أن الخبر وهو الجار والمجرور " لك" قد تقدم على اسم "ما" وهو " حيلة " الواقع مسندا إليه ، وذلك يجري في سياق النفي – حسبما قرر علماؤنا [2] – على إرادة القصر والاختصاص ، وأن المرأة قصدت إلى نفي الحيلة – بدلالاتها المختلفة ، ومحاملها المتنوعة – عن الشاعر وحده دون غيره ، كقوله تعالى في صفة خمر الجنة: "لا فيها غول"، وهذا النمط في بناء العبارة يقصد إليه زيادة في تقرير المعنى وتوكيده ، وتحقيقه وتشديده؛ لتتعانق كل هذه القرائن في نسق العبارة؛ إلى جوار موقع الجملة ، وإخراجها مخرج الاسمية المنبئة عن الثبوت والدوام المقتضي تقريرا وتوكيدا على تكثيف الدلالة البلاغية وتعميقها، وإثرائها وإنمائها، وتتضافر إلى تصوير قناعة المرأة الشديدة بتمكن الشاعر واقتداره، وجرأته وإقدامه، وتفرده وتميزه، وإبراز غاية رضاها، ونهاية قبولها لما أقدم عليه الشاعر من اقتحام مخدعها ، رغم ما يحيط به من أسباب الموت والهلاك، وذلك على الوجه الذي سبق تفصيله وتحليله.

(١) – المرجع السابق نفسه ص٦٦ .

(٢) – ينظر دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ص١٢٤ وما بعدها ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، الطبعة الثالثة ١٩٩٢م ، مطبعة المدني ، القاهرة – دار المدني ، جدة ، كما ينظر الشعر الجاهلي. دراسة في منازع الشعراء ص٦٥ .

وأما الجملة المنفية الثانية في البيت ذاته: "وما إن أرى عنك الغواية تنجلي" فقد جاءت في موقعها تذييلا مقررا ومؤكدا لمضمون الجملة المنفية الأولى: "مالك حيلة "؛ لأن مضمونهما شيء واحد، وهذا التذييل من النوع الذي يمكن أن يجري مجرى الأمثال في المواقف والأحداث المشابهة ؛ لإمكان استقلاليته بالإفادة.

وقد تعانق هذا التذييل في موقعه على تعميق الدلالة وتصوير الغرض، والوفاء بحاجة المعنى؛ لأنه جاء مطابقا في موقعه أتم مطابقة لمقتضى حال الشاعر والمرأة على حد سواء، وعلى وجه سبق تفصيله وتحليله في الجملة المنفية الأولى، بل هو أظهر دلالة وأقوى إيحاء في ذلك منها؛ إذ يعكس بقوة مدى الشعور بالثقة، ويبرز في وضوح فرط السكينة والطمأنينة التي أفعم بها وجدان المرأة ، رغم ما يحيط بالموقف ويحفه من أسباب المهالك والمكاره ، فلم يعترها مع هذا ضيق، ولم يداخلها رغم هذا خوف يثير قلقها، أو يبدي هناك اضطرابها، أو يهيج انفعالها، أو تجنح به – كما هو معهود في مثل هذه المواقف – إلى الإيجاز واقتضاب العبارة ، وهذا كله يدور في فلك المقام المصور، ويطوف بالمقصد العام الذي أراد الشاعر تقريره وتوكيده؛ لأنها ما كانت لتمتلئ بهذا الشعور، أو تتشبع بهذا الإحساس إلا لبلوغ الشاعر الغاية في العز والشرف، والنهاية في المكانة والسؤدد، والذروة في القوة والنفوذ، والجرأة والإقدام، وأنه قد اعتاد اقتحام المكاره، وولوج المخاطر والمهالك.

وقرينة هذا – أولا – من عطفه هذا التذييل على جواب القسم المنفي: "ما لك حيلة"؛ ليأخذ حكمه في الوكادة والتحقيق، والتثبيت والتمكين.

وقرينته – ثانيا– من عناصر السياق وقرائنه؛ بإيثار "ما " في النفي خاصة دون غيرها؛ وذلك على الوجه الذي سبق تفصيله وتحليله في الجملة المنفية الأولى.

وبزيادة "إن" بعد "ما"؛ توكيدا للنفي[1]، وتحقيقا له ، وتقريرا وتمكينا للمعنى المراد؛ لدلالة زيادتها على فرط الثقة ، ونهاية الطمأنينة ، وليست هي "إن" النافية؛ لمخالفتها لـ" ما " في اللفظ ، كما ذهب إليه ابن الأنباري[2]؛ لفساده، وعدم صحة المعنى عليه[3].

وبإيثار الفعل المضارع من الرؤية ، وتسليط النفي عليه ؛ للدلالة على أن هذا الحكم الذي تضمنته الجملة وصدر عنها مبناه على اليقين والإصرار، والاعتقاد والجزم، دون الحدس والتخمين؛ لصدوره عن علم وتحقق، ورؤية وبصيرة .

وللدلالة – أيضا – حسبما تنبئ عنه صيغة المضارع على تجدد نفي رؤية انجلاء الغواية، وتكرره مرة بعد مرة ، وحالا بعد حال ، كلما عنت الأسباب، واقتضت الدواعي.

وبتقديم الجار والمجرور: " عنك " على متعلقه " تنجلي "؛ ليفيد – إلى جانب رعاية القافية، وانسجام النغم وموسيقاه – معنى القصر والاختصاص.

وبتعريف المفعول الأول للفعل المضارع المنفي من الرؤية ، وهو لفظة " الغواية " تعريف الجنس؛ للعموم والشمول.

وختاما بالفعل المضارع " تنجلي " الذي سدت جملته في قافية البيت مسد المفعول الثاني لـ" أرى"، ومعناه : تتكشف؛ للنداء على أن هذه الغواية لا تتكشف عنه في حال، ولا تزول عنه في وقت؛ لتجتمع هذه العناصر البنائية في نظم الجملة المنفية مع وقوعها في موقع التذييل معطوفا على جواب القسم على تصوير أن الغواية قد تمكنت منه، وأنها قد ضربت بجذورها في أخلاقه، وتأصلت في طباعه، حتى صارت لا يرجى انكشافها، ولا يؤمل في الخلاص

---

(١) – ينظر شرح القصائد العشر للخطيب التبريزي ص٤٨ .

(٢) – ينظر شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري ص٥٣ .

(٣) – ينظر الجني الداني في حروف المعاني للمرادي ص٢١٠ ، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ٢٥/١ .

منها، وهذا من أمارات التفرد والتميز، وملامح القوة والتمكن، ودلائل الجرأة والجسارة.

والموضع الثالث من مواضع النفي بـ"ما" في معلقة امرئ القيس جاء في ثنايا قول الشاعر:

فَقُلتُ لَهُ لَمّا تَمَطّى بِصُلبِهِ وَأَردَفَ أَعجازاً وَناءَ بِكَلكَلِ

أَلا أَيُّها اللَيلُ الطَويلُ أَلا انجَلي بِصُبحٍ وَما الإِصباحُ مِنكَ بِأَمثَلِ[1].

والجملة المنفية: " وما الإصباح منك بأمثل " جاءت في موقعها مستأنفة بمعنى جديد، وكأنها إضراب أو رجوع عن خطاب الاستعلاء والغرور، والثقة بالنفس المتناسل من وراء صيغة الأمر في قوله مخاطبا الليل: " ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي " التي توحي – وإن أفادت معنى التمني – بأن زمام المبادرة في المراحل الآتية سوف يكون بيد الإنسان الشاعر ، لا بيد الزمن المخاطب ، كأنه بادر بهذا الأمر السابق قبل التفكير والتعقل، ثم لما تدبر أمره، وتبصر حاله، وراجع موقفه، ورأى أن انجلاء الليل لا صلة له بزوال ما هو جاثم على صدره من هم وغم تراجع عن غروره، وطامن من استعلائه وكبريائه، فسيان عنده الصبح والليل، فإذا جاء الصبح فهو – أيضا – مغموم محزون، أو معناه: إذا جاءني الصبح وأنا فيك فليس ذلك بأمثل؛ لأن الصبح قد يجيء والليل مظلم بعد[2].

وقرينة هذا التوجيه من إيثار " ما " في النفي خاصة؛ فإنها – كثيرًا ما– تكون فيما كان ردا على كلام سابق ، أو فيما ينزل هذه المنزلة [3].

---

(١) – ديوان امرئ القيس ص١٨ .

(٢) – ينظر شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري ص٧٧ ، وشرح المعلقات السبع للزوزني ص٣٥ ، وشرح القصائد العشر للخطيب التبريزي ص٦٤ ، كما ينظر كتاب الشعر الجاهلي . دراسة في منازع الشعراء . د/ محمد أبو موسى ص٩٢ .

(٣) – ينظر الكتاب لسيبويه ١١٧/٣ ، ومعاني النحو . د/ فاضل صالح السامرائي ١٩٤/٤ .

والجملة من وجه آخر تصور – في موقعها، وعلى طريق الكناية – مشاعر اليأس والقنوط المسيطرة على الذات الشاعرة ، وتجسد عميق الأسى وغاية الضيق الجاثم على صدره ، وتعكس شدة التحير، وفرط الوله، وتنبئ عن ملازمة الهم للشاعر بالليل والنهار، وعدم انفكاكه عنه في حال من الأحوال؛ فالحقيقة والواقع أن نهاره يموج هو الآخر بالهم ، ويتمطى بصلبه وينوء بكلكه، كليله الموصوف بذلك تماما.

وقرينة هذه الدلالة الكنائية – أولا – من خطاب الشاعر ما لا يعقل، وهو الليل الذي تشكل الهموم في الحس الإنساني جزءا أصيلا من ماهيته ، وهذا إنما يستحسن فيما يوجب حزنا وكآبة ، ووجدا وصبابة(١).

وخطاب ما لا يعقل فوق أنه من طرائق العرب في أشعارهم يجري على سنن الاستعارة المكنية التي تشخص المعنويات وتبرزها في صورة ماثلة للعيان، أو تنفخ الروح ، وتبعث الحياة والحركة في الجمادات، حتى كأنها تعقل وتسمع، وتعي وتشعر، وهذا من فرط الوله، وشدة التحير.

وقرينتها – ثانيا – من إخراج الأمر السابق في قوله: " ألا انجلي " مخرج التمني–حسبما نحا إليه كثير من البلاغيين (٢) – ، حتى رأى – من فرط إحساسه بذلك– الممكن المتوقع في صورة غير الممكن؛ لتخيله بعيدا أو مستحيلا .

وقرينتها – ثالثا – من إيثار " ما " في النفي – أيضا – ؛ إذ تضفي على الكلام الداخلة فيه قدرا زائدا من التقرير والتوكيد ؛ ولذلك تقع جوابا للقسم، ويقترن منفيها بـ" من " كثيرا.

---

(١) – ينظر شرح المعلقات السبع للزوزني ص٣٥ .

(٢) – ينظر الإيضاح للخطيب القزويني ص٨٥ ، دار الجيل ، بيروت ، والمطول لسعد الدين التفتازاني ص٤٢٦ ، تحقيق: د/ عبد الحميد هنداوي ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، وشروح التلخيص ٣١٩/٢ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ .

ومن دخول " ما " – رابعا – على الجملة الاسمية: " وما الإصباح منك – أو فيك – بأمثل " المنبئة عن الثبوت والدوام ، وهذا – أيضا – يرتد إلى المعنى تقريرا وتوكيدا، فهكذا وقته كله، ليله ونهاره.

على أن دخول "ما" على "الإصباح" مصدرا منفيا معرفا، دون الصبح منكرا، كما في الجملة السابقة: "ألا انجلي بصبح"، وما يتوارى خلف زيادة المبني من زيادة المعنى ، كأن الشاعر أراد وقتا بعينه، وهو عمود الفجر وأول ضوئه الذي يلي الغبش في آخر الليل[1]– يلوح –من طرف خفي– ببارقة أمل من قريب، ويحمل في أحشائه انفراجة ليست ببعيد، ويدل على أن تسلط الهموم وجثومها على صدر الشاعر، وقهر الزمن إياه لن يتجاوز الوقت الراهن إلى المستقبل، وأن زمام المبادرة في مستقبل الزمن سيكون بيد الشاعر، لا بيد الزمن، وهذا معنى يتناسب بقدر كبير مع مقتضى حال الشاعر في القدرة والتمكن، والتفرد والتميز.

وقرينتها – خامسا – من دخول الباء الزائدة على أفعل التفضيل "بأمثل" في قافية البيت ؛ زيادة في توكيد نفي المفاضلة بين ليل الشاعر ونهاره ، وأنهما قد صارا في الثقل والجثوم بسبب الهموم سواء.

وقرينتها – سادسا – من تقدم متعلق أفعل التفضيل عليها، وهو: "منك" في رواية، و" فيك " في رواية أخرى؛ وذلك لإفادته – من وجه – معنى القصر والاختصاص، وأن المماثلة المنفية واقعة بالقياس إلى الليل خاصة.

ولمحافظته – من وجه آخر – على التناغم الإيقاعي، والجرس الموسيقي في قوافي المعلقة التي بنيت على روى اللام المكسورة، ولو جاء نظم القريض في البيت على الأصل في الترتيب لفاتت هذه المزية، وتلاشى الحسن من الكلام ، إلا أن لرواية " فيك "خصوصية في المعنى، وزيادة في تعميق الدلالة وإثرائها لا تفيدها رواية: " منك " ولا تنهض بها ، وهي المبالغة في تقرير نفي

---

(١) – ينظر الكشاف للزمخشري ٢/ ٤٩ .

المماثلة بين الليل والإصباح ، وتأكيد استوائهما في نظر الشاعر وفي مخيلته؛ لدلالتها على أن الإصباح كأنه قد صار جزءا من أجزاء الليل ، وأن الليل كأنه قد صار وعاء للإصباح مشتملا عليه ، وظرفا محيطا به ، كأنه أراد أن يقول: " إن الصبح قد يجيء والليل مظلم بعد.

وقرينتها – أخيرا – من سوق الجملة المنفية مساق الخبر الخالي من المؤكدات؛ للدلالة على أن الأمر في غاية الظهور والوضوح، والشهرة والذيوع، وأنه ليس بموضع تردد وشك ، أو رفض وإنكار.

وأما الموضع الرابع والأخير وهو قول الشاعر:

وَما ذَرَفَت عَيناكِ إِلّا لِتَضرِبي بِسَهمَيكِ في أَعشارِ قَلبٍ مُقَتَّلِ[1].

فقد انتقض فيه النفي الذي كانت أداته " ما " بـ" إلا " ؛ لتخرج الجملة المنفية مخرج القصر بالنفي والاستثناء ، فتفيد إثباتا ظاهرا صريحا ، ونفيا متضمنا، وهذا ما حدا بالبحث لتصنيف هذا الموضع في المحور الأخير الذي اختص في دراسة الجملة التي تفيد النفي إفادة ضمنية، والله المستعان.

(١) – ديوان امرئ القيس ص١٣ .

" المحور الثالث "

" مواقع الجملة المنفية بـ" لا " في معلقة امرئ القيس وأثرها في تعميق الدلالة البلاغية وإثرائها "

تعد " لا " من أقدم حروف النفي في العربية، إن لم تكن أقدمها على الإطلاق(1)؛ ولذلك تدخل على الأسماء والأفعال ، وعلى الجملة والمفرد ،فإذا دخلت على الاسم أفادت مضمون الكلام توكيدا، لاسيما إذا كان مدخولها نكرة؛ لأنها تكون – حينئذ – نصا في الدلالة على العموم(2).

وإذا دخلت على الفعل المضارع خلصت معناه للاستقبال وهذا هو مذهب جمهور النحويين، وقد يكون معها للحال، وقد يدل على الاستمرار (3).

أما إذا دخلت على الفعل الماضي، أو دخلت على الاسم معرفا فيجب تكرارها(4).

وحين يراجع البحث معلقة امرئ القيس للوقوف على مواقع الجملة المنفية بـ"لا" في سياقاتها منها، وما لهذه المواقع من أثر في إنماء الدلالة البلاغية وتكثيفها، وتعميقها وتصويرها على وجه يتقرر به المعنى، ويتأكد به المراد نجد أنها جاءت في أربعة مواضع، سبقت دراسة موضع منها في المحور الأول، في قول الشاعر:

وَتَيماءَ لَم يَترُك بِها جِذعَ نَخلَةٍ   وَلا أُجُماً إِلّا مَشيداً بِجَندَلِ

أما المواضع الثلاثة الأخرى فجاء أولها في قول الشاعر:

---

(1) – ينظر كتاب التطور النحوي للغة العربية للأستاذ برجشتراسر ص١١٥ ، مطبعة السماح ١٩٢٩م

(2) – ينظر الجني الداني في حروف المعاني للمرادي ص٢٩١-٢٩٢ ، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام ٢٣٧/١ .

(3) – ينظر المرجعان السابقان الأول ص٢٩٦ ، والثاني ٢٤٤/١ .

(4) – ينظر شرح الكافية في النحو للرضي ٢٥٨/١ وما بعدها ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٥م ، ومغني اللبيب لابن هشام ٢٤٢/١ وما بعدها .

أَلا رُبَّ يَومٍ لَكَ مِنهُنَّ صالِحٍ   وَلا سِيَّما يَومٌ بِدارَةِ جُلجُلِ[1].

وجاء ثانيها في قول الشاعر:

وَبَيضَةِ خِدرٍ لا يُرامُ خِباؤُها   تَمَتَّعتُ مِن لَهوٍ بِها غَيرَ مُعجَلِ[2].

وجاء ثالثها في قول الشاعر:

وَجيدٍ كَجيدِ الرِئمِ لَيسَ بِفاحِشٍ   إِذا هِيَ نَصَّتهُ وَلا بِمُعَطَّلِ[3].

أما الجملة المنفية بـ" لا " في الموضع الأول منها ، وهي قوله: "ولاسيما يوم بدارة جلجل" فقد جاءت في موقعها – باعتبار – تفصيلا بعد إجمال، وإيضاحا بعد إبهام للأيام الصالحة التي عاشها الشاعر قبل ذلك، وهي التي أجمل ذكرها، وأبهم شأنها في قوله في الشطرة الأولى من البيت: "ألا رب يوم لك منهن صالح".

وقرينة هذا الوجه من تنكير " يوم "، وإيقاع " رب " التكثيرية التي تنبئ عن كثرة هذه الأيام الصالحة وتعددها وتنوعها عليه، وتلك طريقة في بني الكلام وصياغته تعمل على تعميق دلالته، وإثراء معانيه، وشد معا قده وعراه، وإحكام رباطه ووثاقه، وإيقاعه في النفس موقعا حسنا ، وعلى نحو بالغ من التقرير والتوكيد الناشئ – أولا – من تشوق النفس وتطلعها إلى التفصيل والبيان الذي أحدثه الإجمال والإبهام؛ فإن النفس حين يرد عليها قول الشاعر: "ألا رب يوم ... " مجملا مبهما تتلهف إلى بيان هذه الأيام الصالحة، وتفصيل إجمالها، فإذا شرع الشاعر في التفصيل والإيضاح؛ بذكر الجملة المنفية بـ"لا" أولا: " ولاسيما يوم ..." تمكن المعنى في النفس، واستقر في أعماق الضمير، وخبايا الوجدان.

(١) – ديوان امرئ القيس بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص١٠ .

(٢) – نفس المرجع ص١٣ .

(٣) – نفس المرجع ص١٦ .

والناشئ – ثانيا– من خصيصة التكرار؛ فإن إخراج الكلام هذا المخرج هو بمنزلة عرض للمعنى في معرضين، وإبرازه في صورتين، تقرر إحداهما الأخرى وتؤكدها.

وجاءت – باعتبار آخر– تخصيصا بعد تعميم[١]؛ فقد عطفت الجملة المنفية في موقعها عطف الخاص على العام؛ إذ اليوم الذي بدارة جلجل من جنس أيامه الصالحة، وفرد من أفرادها، لكنه لما انفرد عن سائر أيامه الصالحة بما له من الأوصاف الشريفة، والنعوت الجليلة صار كأنه شيء آخر مغاير لتلك الأيام، بحيث لا تشمله، ولا يعلم حكمه منها؛ تنزيلا للتغاير في الوصف الكائن في هذا اليوم، والذي حصلت به المزية منزلة التغاير في الذات، وبذلك صح ذكره بعده على سبيل العطف المقتضى للتغاير[٢]؛ ولذلك قال الشراح، معناه: التعجب من فضل هذا اليوم؛ يريد أن ذلك اليوم كان أحسن الأيام وأتمها وأفضلها[٣].

ولعل استعادة الشاعر ذكريات شبابه الجميلة، وأيامه الصالحة على هذا النحو المذكور، وإخراج عبارته مخرج الإطناب في صورتيه السابقتين هو محاولة جادة للتعويض النفسي عن ضروب المعاناة التي تفرضها رحلة الحياة الجادة على الشاعر، وانتزاع يقين نفسي بأن ما تخيره الشاعر من نمط حياة خاصة، أو ارتضاه سبيلا لإنفاق العمر فيه كان هو الأجدر بذلك، ومن ثم فليس هناك ما يوجب الندم، بل إن ما تحقق من إنجاز لهو كاف–في ذاته– لمنح إحساس بالرضا والتفاؤل[٤].

---

(١) – لا تعارض بين هذا الوجه وسابقه؛ لأن الأول باعتبار التفصيل والإجمال، وهذا باعتبار الخصوص والعموم.

(٢) – ينظر شروح التلخيص ٢١٧/٣.

(٣) – ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص٣٣، وشرح المعلقات السبع للزوزني ص١٦، وشرح القصائد العشر للتبريزي ص٣٠.

(٤) – ينظر كلاسيكيات الشعر العربي. د/ صلاح رزق ١٧٩/١–١٨٠.

أو يمثل نوعا من الهروب الحالم من قسوة الواقع ، وثقل وطأته التي ضاق بها الشاعر ذرعا في القسم الثاني من حياته ، وبعد مقتل أبيه ، وهذا وذاك من وسائل التنفيس عن النفس، وهدهدة توترها، وتأنيسها في هذه المواقف المكروبة التي تنوء النفس فيها بأحمالها وأثقالها.

أو زفرة نفس ضائقة مهمومة، انتابتها اللوعة، وتملكت الحسرة عليها وجدانها على ذكرى المنازل وآثار الأحبة؛ بقرينة مطلع المعلقة عما قريب، والذي يفيض ألما وشجنا على أيام اللهو والصبوة، وذكريات المنازل والأحبة.

وبقرينة الحال وطبيعة الموقف؛ فقد نظم الشاعر معلقته –حسبما أثبت العلماء– في أخريات حياته، وختام أيام عمره .

وليس الأمر كما ذكر أحد الباحثين[١] من أن تخصيص يوم دارة جلجل بالذكر من عموم أيامه الصالحة يمثل دليلا قويا يبعث على النفور من سخف تلك الروايات التي توردها بعض الكتب القديمة[٢]، كأن تذكر أن الشاعر أدرك بعض فتيات قومه وبنات عمومته أثناء استحمامهن بأحد الغدران ، فأخذ ملابسهن وقعد عليها ، وأبى أن يعطيهن إياها حتى تخرج كل واحدة منهن من الماء أمامه عارية ، وتأخذ ملابسها ، إلى آخر الرواية؛ لأن سياق المعلقة، وطبيعة أحداثها، وخصوصية مواقفها مما يأبى هذا التوجه، ولا يعضده؛ لاتكاء الشاعر فيها في وصف هذه الأيام بالصلاح على ذكر مغامراته النسائية، وتفصيل أيام لهوه وصبوته معهن.

ولأن الصلاح أمر نسبي يختلف منظوره أو مفهومه من بيئة إلى بيئة، ومن زمان، ورؤية، وتوجه إلى زمان، ورؤية، وتوجه آخر، لاسيما في هذا العصر الجاهلي.

---

(١) ينظر المرجع السابق ١/١٧٩– ١٨٠

(٢) – ينظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/١٠٨–١٠٩ ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، الطبعة الأولى ٢٠١٢م ، المكتبة التوفيقية، القاهرة .

و"لا" الداخلة على "سي" هي النافية للجنس ، وإيثارها في هذا الموضع هو الأبلغ في تقرير المعنى ، وتصوير الغرض ؛ لدلالتها على الاستغراق ، كأنك إذا استقريت أيامه الصالحة يوما يوما كان هذا اليوم الذي بدارة جلجل هو أفضلها وأمثلها على الإطلاق.

و"سي" المضافة إلى الموصول "ما" المتصل بها تفيد المثلية، ونفي المثلية يستلزم بطريق الكناية أفضلية هذا اليوم المذكور على سائر أيامه الصالحات ؛ لما له من الخصوصيات التي أوردتها بعض كتب الأدب القديمة[١] وسبقت الإشارة إليها، إلا أن إثبات المعنى على مدارج اللزوم هو الأبلغ، والأقوى؛ لأنه أكثر إنهاضا للفكر، وتنشيطا للخيال؛ ولقيامه مقام الدليل والبرهان على صحة المعنى وصدقه.

أما "ما" المضاف إليها "سي" فقد سبق أنها موصولة ، ولفظة "يوم" بعدها مرفوعة على أنها خبر لمبدأ محذوف؛ إذ تقدير الكلام "ولا سي الذي هو يوم بدارة جلجل"، وقد استقبح التبريزي هذا الوجه في شرحه ؛ وعلة استقباحه إياه أنه حذف اسما منفصلا من الصلة، وليس هذا بمنزلة قولك: الذي أكلت خبز؛ لأن الهاء متصلة فحسن حذفها[٢].

ويجوز أن تكون زائدة للتوكيد ، وحينئذ تكون "سي" مضافة إلى لفظ "يوم" مجرورا ، وهذا الوجه هو الذي استحسنه التبريزي ورجحه ، إلا أن القول بجعل "ما" موصولة، حذف صدر صلتها هو الذي يميل إليه البحث؛ إذ هو الأبلغ في مقام تفضيل هذا اليوم المذكور على سائر أيامه الصالحة ، الأقوى فيه؛ لإيغالها في الإبهام والتعميم الذي ينعكس على هذا اليوم تفخيما وتعظيما، وتهويلا من شأنه، وبعدها الشديد فيه.

---

(١) – ينظر المرجع السابق ١/١٠٨-١٠٩ .

(٢) – ينظر شرح القصائد العشر للخطيب التبريزي ص٢٩-٣٠ .

والإضـافة فـي " دارة جلجـل " إضـافة تخصـيص ، وهـو موضـع غـدير بالحمي، وقيل:هو عند غمرة كندة ، يقال : دار ودارة ، وغدير وغديرة ، وإزار وإزارة ، كل هذا بمعني واحد[١]؛ وإنما آثر الشاعر لفظ المؤنث دون المذكر؛ رعاية لاعتبار الوزن الذي نظمت عليه المعلقة ؛ فإن صيغة المذكر قد تؤدي إلى انكساره.

ورعاية لسياق القريض؛ بقرينة إخراج الشطرة الأولى مخرج التأنيث في قولـه: "مـنهن"؛ وبقرينـة ذكـر العذارى بعده فـي قولـه: " ويوم عقرت للعذارى مطيتي "[٢].

وأمـا الجملـة المنفيـة بـ" لا " فـي الموضـع الثـاني، وهـي قولـه: " لا يـرام خباؤها " فقد كان لوقوعها في سياقها هذا الموقع – حسبما يأتي تفصيله – دور بارز في إثراء الدلالة وإنمائها، وتقريرها وتوكيدها؛ فقد خرجت في موقعها – باعتبار – مخرج النعت الذي جاء كاشفا ومبينا ، ومفخما ومعظما ، ومهولا من شأن تلك المرأة المكني عنها بلفظ النكرة " بيضة خدر " الذي تكتنفه غلالة رقيقة من الغموض ، وظلال شفيفة من الإبهام، وإن أكسبته الإضافة قدرا من التخصيص الذي لا يرقى إلى حد التعيين.

وإخراج التركيب هذا المخرج الذي يضرب على شغاف القلوب، ويعزف على أوتار الوجدان يضيف إليه قوة ووكادة، ويضفي عليها هالة ومهابة يترسخ بها المعنى في سراديب النفس، وأعماق الضمير؛ لخروجه مخرج الإيضاح بعد الإبهـام الـذي هـو عـرض للمعنـى فـي معرضـين، وإبـرازه فـي صـورتين تقـرر إحداهما الأخرى وتؤكدها.

وخرجـت– فـي موقعهـا باعتبـار آخـر– وتبهرجـت فـي حلـة الكنايـة التـي تصور– من جانب – نهاية الحفظ والصون، وفرط الحماية والرعاية، وتجسد –

---

(١) – ينظر شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري ص ٣٣ ، وشرح المعلقات السبع للزوزني ص ٦٦، وشرح القصائد العشر للتبريزي ص٣٠ .

(٢) – ينظر الشعر الجاهلي . دراسة في منازع الشعراء ص٤٤ .

من جانب آخر– حديث العزة والمنعة، وقوة الشكيمة، وشدة البأس التي يأوي إليها قومها، ويلوذون بها، ونبأ الكناية وخبرها ليس منا ببعيد.

وخرجت– باعتبار ثالث – مخرج المجاز المرسل بعلاقة المحلية؛ حيث ذكر المحل، وهو الخباء لما كان على عمودين أو ثلاثة، وأراد الحال فيه، وهو المرأة التي بداخله، والمكني عنها بـ" بيضة خدر"، والمجاز المرسل ضرب من المبالغة والتخييل الذي يرتد إلى المعنى تصويرا، وإلى الغرض تحقيقا، فإذا كان هذا هو حال الخباء الذي يأويها ، فلا شك في أن حالها في العزة والمنعة أمكن وأدخل، ومقامها في الحفظ والصون أقوى وأشد.

وخرجت – باعتبار رابع– مخرج التعريض المفهوم من عرض الكلام وجانبه بامتداح الشاعر نفسه بالقوة والاقتدار، والتمكن والبسالة، والجرأة والجسارة، والعزة والشرف، والتفرد والتميز، بل قد يكون هذا الوجه هو بيت القصيد، وعمود المعنى الذي أراد الشاعر إثباته من خلف هذه العبارة.

وتقرير هذا الوجه وتأكيده من قرينة السياق؛ بدلالة صرفه الخطاب إلى نفسه في قوله بعد الجملة المنفية: " تمتعت من لهو بها غير معجل "، وقوله – أيضا: "تجاوزت إليها أحراسا وأهوال معشر ..." الذي يعد تذييلا مقررا ومؤكدا لمضمون الجملة المنفية السابقة.

وبدلالة قوله: " غير معجل "؛ إذ لا معنى لهذا الإيغال إلا المبالغة في تصوير عزه وشرفه، وتحقيق قوته واقتداره ، وأنه لا يخاف، وأن هذه المرأة التي لا يرام خباؤها ترى الشاعر عندها متمتعا بها، وهو رابط الجأش، ساكن القلب، غير خائف ولا فزع، وأنه ينال الممنوع المصون الذي لا يناله أحد، وإن تجاوز دونه الأهوال والصعاب، والمهامه والمهالك(١).

(١) – ينظر الشاعر الجاهلي . دراسة في منازع الشعراء ص٦٢ ، وكلاسيكيات الشعر العربي ، المعلقات العشر ١/١٩٠ .

والمتأمل في لبنات الجملة المنفية وعناصرها يجد أنها هي الأخرى قد تضافرت – إلى جوار المواقع السابقة – إلى تعزيز الدلالة وتقويتها، وتكثيفها وتصويرها؛ ابتداء من استخدام الشاعر أداة النفي " لا " دون غيرها، وإدخالها على الفعل المضارع؛ إذ تدور في فلك تعضيد هذه الدلالات السابقة المستكنة من وراء الجملة المنفية في مواقعها؛ لدلالتها على انقطاع الرجاء، وشدة الإياس من الوصول إلى هذه المرأة في الحال أوفى الاستقبال، وهذا من فرط عزها وشرفها، ونهاية حفظها ومنعتها.

ومرورا باستخدام صيغة المضارع المبني للمجهول خاصة ؛ إذ هو الذي يعمل على تربية المهابة والفزع، ويضفي على الخباء في سياق النفي هالة من الفخامة والهول؛ لما وراء إبهام الفاعل وعدم تعيينه بحذفه من نسق العبارة، وإنابة المفعول به منابه من دلالة العموم والشمول، حتى تذهب النفس في تصوره كل مذهب ممكن.

وانتهاء بإيثار صيغة المضارع المبني للمجهول من مادة الروم خاصة؛ إذ هي الأقدر على تصوير فرط عزة المرأة ومنعتها ، وتقرير شدة حفظها وصونها؛ لاتساع مفهومها، وعموم دلالتها لتشمل حديث النفس، وميل القلب، فضلا عن التوجه والقصد المباشر[١].

وأما الجملة المنفية في الموضع الرابع فسيأتي بحثها في المحور الخامس الذي اختص بدراسة الجملة المنفية بـ" ليس" لأن النفي بـ" لا " جاء تبعا للنفي بـ" ليس" في أول البيت، ومعطوفا عليها.

---

(١) – ينظر الشعر الجاهلي . دراسة في منازع الشعراء ص٦٢ .

"المحور الرابع "

" مواقع الجملة المنفية بـ" لما " في معلقة امرئ القيس وأثرها في تعميق الدلالة البلاغية وإثرائها "

من المعلوم أن " لما " من أدوات النفي التي تختص بالدخول على الفعل المضارع ، مثلها مثل " لم " ، حيث تدخل كل منهما على الفعل المذكور فتقلب معناه إلى المضي، إلا أن ثمت اختلافا بينهما وفرقا من بعض الوجوه التي يمكن مراجعتها في مظانها من كتب النحو(١).

والناظر المتأمل في معلقة امرئ القيس للوقوف على مواضع الجملة المنفية ب " لما " يجد أن النفي بهذه الأداة قد جاء في المعلقة على وجه هو في غاية الندرة ؛ إذ لم نقف من ذلك بعد بحث وتفتيش، ونظر تدقيق إلا على موضع واحد ، جاء في إحدى روايات المعلقة ، وفي قول الشاعر مخاطبا الذئب:

فَقُلتُ لَهُم لَمّا عَوى إنَّ شأننا قَليلُ الغِنى إن كُنتَ لَمّا تَمَوَّلِ (٢).

حيث وقعت الجملة المنفية : " لما تمول " في قافية البيت السابق خبرا عن فعل الكون الناسخ في قوله: "إن كنت لما تمول " الذي خرج في موقعه مخرج التذييل التعليلي للجملة السابقة عليه: " إن شأننا قليل الغنى "؛ إذ هما في معنى واحد، وإن كان هذا التذييل من النوع الذي لا يجري مجرى المثل، لشدة ارتباطه بما قبله، وقوة تعلقه به؛ لتوقف فهم معناه عليه.

والغرض البلاغي من وقوع هذه الجملة التي مثلت الجملة المنفية أحد أركانها موقع التذييل على النحو المذكور هو المبالغة في التأكيد على مشابهة

---

(١) - ينظر رصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي ٣٥١ ، تحقيق د/ أحمد محمد الخراط ، الطبعة الثالثة ٢٠٠٢م ، دار القلم ، دمشق .

(٢) - ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص٨١ ، وشرح المعلقات السبع للزوزني ص٣٧ ، وشرح القصائد العشر للتبريزي ص٦٦ .

كل من الشاعر والذئب للآخر في قلة الغنى ، أو في طلب الغنى ، وتقرير رسوخ قدم كل منهما في هذا الشأن ، كأن شأن كل منهما أن يقل غناه؛ إن كان الذئب قليل الغنى فالشاعر كان مثله قليل الغنى ، أو كأن عادة كل منهما وديدنه الذي لا ينفك عنه أن يطلب الغنى ، ويجتهد في الطلب ، لكنه لا يظفر منه بطائل، أو هكذا قال الشراح (١)؛ إذ العلة تقوم مقام الدليل والبرهان على صحة الحكم الذي اشتملت عليه الجملة المذيلة ، وهذا الوجه لا يتأتى إلا باعتبار "إن" في صدر الجملة هي المخففة من الثقيلة، وهذا كثير في كلامهم.

وخرجت في موقعها – باعتبار آخر – مخرج التذييل – أيضا – إلا أنه ليس – كسابقه –واردا على جهة التعليل ، بل جاء لغير تعليل مقررا ومؤكدا لمضمون الجملة السابقة عليه ؛ لكونهما في معنى واحد ، ومضمون جد متقارب.

ويجوز– باعتبار ثالث– أن تكون الجملة جارية على نسق كمال الاتصال؛ لتنزلها منزلة التوكيد اللفظي من قوله: " إن شأننا قليل الغنى"؛ إذ الجملة محل البحث كأنها إعادة وتكرار للجملة السابقة؛ وقرينة هذا الوجه من الفصل بين الجملتين، وعدم العطف بينهما.

وهذا الوجه وسابقه لا يتأتيان إلا على جعل "إن" في صدر الجملة هي الشرطية، والجملة من فعل الكون الناسخ، واسمه، وخبره في محل فعل الشرط، وجواب الشرط محذوف ، تقديره : إن كنت لما تمول فشأني وشأنك كذلك "؛ بدلالة قرينة السياق قبله من قوله: "إن شأننا قليل الغنى"، وهذا هو الأظهر، وهو المفهوم من فحوي كلام الشراح(٢)، لتتضافر كل هذه المواقع التي احتملتها الجملة في سياقها، وتتعانق على تكثير الفائدة وتكثيفها،

---

(١) – ينظر شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري ص٨١ ، وشرح المعلقات السبع للزوزني ص٣٧ .

(٢) – ينظر المرجعان السابقان ، الأول ص٨١ ، والثاني ص٣٧ .

وتعميقها وإثرائها، وإعطاء الجملة آفاقا رحبة من المعنى، وأبعادا متسعة من الدلالة، وضروبا متنوعة من الإيحاء.

وقد ذكر ابن الأنباري وغيره [١] أن " لما " في قول الشاعر: " لما تمول " في معنى " لم " كأنهم اتكأوا في تسويغ هذا الحمل على أن كلا من الأداتين تختص بالدخول على الفعل المضارع فتقلب معناه إلى المضي إلا أن المزية تبقى ل " لما " في هذا السياق خاصة دون " لم " ؛ إذ تفيد – من وجه – نفي التمول – وهو الغني الكثير – عن كل من الشاعر والذئب واستمراره إلى الحال والوقت الذي تكلم فيه الشاعر ؛ لدلالتها على امتداد النفي واستمراره إلى وقت التكلم ، قال الرضي : " واختص " لما " – أيضا – بامتداد نفيها من حين الانتفاء إلى حال التكلم... وأما " لم " فيجوز انقطاع نفيها دون الحال ، نحو: " لم يضرب زيد أمس ، لكنه ضرب اليوم[٢]"، وتأكيد هذا المعنى وتقريره من قرينة السياق ؛ بدلالة رواية: "إن شأننا طويل الغني" بدلا من رواية: " قليل الغنى"؛ إذ تدل على دوام طلب الغنى وامتداده، وطول النفس، وعلو الهمة، وقوة العزيمة في السعي ، كما تنبئ عن جهد مضاعف، وعمل موصول، ووقت أطول مبذول في تحقيق الوفر والزيادة وتحصيله من كل من الشاعر والذئب، وعدم قناعة كل واحد منهما بما هو فيه من قلة.

وتفيد – من وجه آخر – معنى التوقع والحصول، فزيادة غنى كل واحد من الشاعر والذئب أمر متوقع الحصول عما قريب ، وهذا الاختيار – لا شك – من عبقرية الشاعر وفطنته؛ إذ هو المطابق لمقتضى حاله وحال الذئب في القدرة والتمكن ، والتفرد والتميز، وذلك على النحو الذي صورته المعلقة في مشاهدها المتنوعة ، وجسدته في حلقاتها المختلفة من عناية الشاعر وتوفره على تحصيل الممنوع ، واجتياز الصعب ، واقتحام الأهوال والشدائد ،

---

(١) – ينظر شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري ص٨١ ، وشرح المعلقات السبع للزوزني ص٣٧ ، وشرح القصائد العشر للتبريزي ص٦٦ .

(٢) – شرح الكافية في النحو للرضي ٢٥١/٢ .

واستنزال العزيز المصون الذي لا يقدر على ترويضه والوصول إليه إلا من كان مثله في العزة والجاه، والملك والسلطان؛ إذ يتطلب كل ذلك هذا النفس الطويل، والهمة العالية ، والعزيمة الصلبة، والسعي الحثيث الدءوب ، والجهد المتواصل الذي لا يني ولا يفتر.

وهو الذي ينسجم – من وجه آخر – ويتوافق – أيضا – مع رواية : " طويل الغنى " التي تستلزم دوام السعي ، وتقتضي كثرة الطلب ؛ فإن تكرار المحاولة، وتجدد المعاودة مرة بعد أخرى كفيل بتحصيل المطلوب ، ونيل المقصود، وتحقيق الغاية والهدف المنشود.

ولقد كان الشاعر غاية في البراعة والعبقرية ، وحسن رياضة القريض؛ حين آثر الفعل المضارع المنفي من مادة التمول خاصة : " لما تمول "، دون مادة الغنى؛ إذ هو الذي مهد به – أولا – ووطأ لتنويع العبارة ، وتلوين الخطاب في نسق البيت ؛ تطرية للنشاط ، وإيقاظا للإصغاء ، وجذبا للانتباه، ودفعا للملل والفتور والسآمة، واحترازا عن التكرار الخالي من الفائدة لو آثر الفعل المضارع من مادة الغنى التي سبقت في نظم البيت.

وهو الذي يحصل به – ثانيا – تناغم الجرس ، وتوافق النغم ، وتجاوب الإيقاع واطراده في قوافي المعلقة التي بنيت على روى اللام المكسورة.

ولأن المقصود – ثالثا – إلى نفي الكثرة المتناسلة من طبيعة الدلالة في المادة نفسها – كما سبق بيانه – ، والمنبثقة – أيضا – من تضعيف عين الفعل، وهذا يجعل إيقاع النفي على هذه اللفظة خاصة هو الأكثر مطابقة في سياقه لمقتضى حال الشاعر في الغنى والثراء، والوفرة والجاه، والقوة والسلطان، وهذا ما لا تنهض به مادة الغنى ، ولا تقوم به ؛ لدلالة إيقاع النفي عليها – حينئذ – على انتفاء الغنى والوفر من أصله ، وهذا غير مراد ، ولا تتحقق به المطابقة المذكورة، و الله أعلم.

" المحور الخامس "

" مواقع الجملة المنفية بـ" ليس " في معلقة امرئ القيس وأثرها في تعميق الدلالة البلاغية وإثرائها "

ذهب جمهور النحويين إلى أن " ليس " من الأفعال النافية التي لا تتصرف، ودليل فعليتها عندهم من اتصال الضمائر المرفوعة البارزة بها من وجه، ومن اتصال تاء التأنيث بها من وجه آخر(١).

وخالف في ذلك ابن السراج ، والفارسي، وجماعة من النحويين، فذهبوا إلى أنها حرف من الحروف(٢).

وقال صاحب رصف المباني: "ليس" ليست محضة في الفعلية ، ولا محضة في الحرفية؛ ولذلك وقع الخلاف فيها بين سيبويه والفارسي ، فزعم سيبويه أنها فعل، وزعم أبو علي أنها حرف، والذي ينبغي أن يقال فيها: إذا وجدت بغير خاصة من خواص الأفعال، وذلك إذا دخلت على الجملة الفعلية أنها حرف، لا غير، كما النافية "(٣).

وتختص " ليس " بنفي الجملة الاسمية، كما تختص بنفي الحال عند الجمهور، لكن الراجح أنها لنفي الحال عند الإطلاق، فإن قيدت كانت بحسب ذلك القيد؛ فقد تكون للمضي، وقد تكون للاستقبال، وقد تكون للاستمرار، وقد تكون للحقيقة غير مقيدة بزمن، وهي من أخوات "كان" التي ترفع المبتدأ وتنصب الخبر(٤).

---

(١) – ينظر الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي ص٤٩٣ ، ومغني اللبيب لابن هشام ٢٩٣/١ .

(٢) – ينظر الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي ص٤٩٤ .

(٣) – ينظر رصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي ص٣٦٨-٣٦٩ .

(٤) – ينظر شرح التسهيل لابن مالك ٣٨٠/١ ، تحقيق : د/ عبد الرحمن السيد ، د/ محمد بدوي المختون ، الطبعة الأولى ١٩٩٠م ، هجر للطباعة والنشر ، كما ينظر شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ٢٥٤/١ ، الطبعة الأولى ١٩٩٨م ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، وشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ٢١٠/١-٢٤١ ، محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الطلائع ، القاهرة ٢٠٠٩م .

ومع قوة "ليس" في النفي ، وكثرة دورانها في الكلام البليغ لهذا الشأن إلا أننا حين نبحث عن مواضعها في معلقة امرئ القيس يثير اهتمامنا قلة مواضع الجملة المنفية بها في المعلقة، حيث لم يتجاوز العد بها ثلاثة مواضع، جاء أولها في سياق مقطع المعنى الذي قص فيه الشاعر لهوه وعبثه مع تلك المرأة المصونة التي وسمها بأنها " بيضة خدر"، وهو قوله في وصف جيدها:

وَجيدٍ كَجيدِ الرِئمِ لَيسَ بِفاحِشٍ إِذا هِيَ نَصَّتهُ وَلا بِمُعَطَّلِ[1].

وجاء الموضع الثاني منها في ختام حديثه عن تلك المرأة – أيضا–، وكيف أن فؤاده لا يطاوعه في التسلي عن هواها، وهو قوله:

تَسَلَّت عَمَاياتُ الرِجالِ عَنِ الصِبا وَلَيسَ فُؤادي عَن هَواكِ بِمُنسَلي[2].

وأما الموضع الثالث فقد برز في قوله في ختام وصف الفرس:

ضَليعٍ إِذا اِستَدبَرتَهُ سَدَّ فَرجَهُ بِضافٍ فُوَيقَ الأَرضِ لَيسَ بِأَعزَلِ[3].

أما الجملة المنفية بـ" ليس" في الموضع الأول، وهي قوله: " ليس بفاحش إذ هي نصته ولا بمعطل" فقد استغرقت معظم القريض في البيت؛ لكثرة قيودها المتعلقة بها وتنوعها.

والناظر المتأمل في هذه الجملة المنفية يجد أنه كان لتعدد مواقعها، وتنوع محاملها باعتبارات مختلفة أكبر الأثر في تعميق الدلالة البلاغية وإثرائها، وتصويرها وإبرازها؛ فقد خرجت – باعتبار ظاهر قوي– مخرج الإيغال؛ لكونها في ختم البيت؛ لتفيد نكتة يتم المعنى بدونها، وهي زيادة المبالغة في تحقيق تشبيه جيد هذه المرأة الموسومة بأنها بيضة خدر بجيد الرئم، وهو الظبي الأبيض الخالص البياض[4]؛ فقد تم المعنى، وأصاب الشاعر المحز حين قرن بين جيدها وجيد الرئم في هذا التشبيه الماثل في

---

(١) – ديوان امرئ القيس ص١٦ .

(٢) – نفس المرجع ص١٨ .

(٣) – المرجع نفسه ص٢٣ .

(٤) – ينظر شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري ص٦١ .

قولـه: "وجيد كجيد الرئم"؛ فإنك لا تجد أرشق، ولا أجمل من جيد الرئم؛ لما يجتمع فيه من كثير من مظاهر الحسن، ومقومات الجمال المادي الظاهر ، ثم زاد التشبيه مبالغة ، والمعنى تحقيقا حين نفى عن الجيد ما يشينه، أو يقدح في حسنه بهذا الإيغال الذي خرجت مخرجه الجملة المنفية: "ليس بفاحش .." التي اشتملت على زيادة لطيفة في المعنى، فبلغ بذلك مرتبة الكمال، وغاية التمام في الوصف.

بل أفاد هذا الإيغال ضمنا ؛ بقرينة النفي المعطوف على خبر " ليس" في قافية البيت ، وهو قوله: " ولا بمعطل " الذي جاء في موقعه احتراسا بديعا ، قصد به دفع توهم غير المراد ، تعريضا بأفضلية جيدها على جيد الرئم؛ لخلو جيد الرئم من الحلي، أما جيدها فليس بعطل من ذلك، وهذا ما يزيده جمالا فوق جماله، وحسنا زائدا على حسنه.

وخرجت – باعتبار آخر– مخرج التذييل المقرر والمؤكد لمضمون الجملة التشبيهية قبلها ؛ لوقوعها في إثرها مشتملة على معناها؛ إذ هما في معنى واحد ، ومضمون جد متقارب ؛ فإن الرئم هو أحسن الحيوانات جيدا، وأجملها عنقا، إلا أن هذا التذييل من النوع الذي لا يجري مجرى المثل؛ لشدة ارتباطه بما قبله، وتوقفه في فهم معناه عليه.

ويجوز أن تتنزل الجملة المنفية في موقعها باعتبار الفصل وترك العطف – علي أن الجملة لا محل لها من الإعراب – منزلة البيان أو البدل من الجملة التشبيهية ؛لشدة اللحمة بينهما، وعمق الصلة التي تجمعهما؛ إذ يتنزل البيان من المبين، أو البدل من المبدل منه منزلة الشيء من نفسه.

ويجوز – أيضا – أن تكون الجملة المنفية واردة في موقعها – باعتبار تلك الحركة النفسية المقدرة – على نهج الاستئناف البياني الذي خرج مخرج الجواب عن سؤال أثارته الجملة السابقة، كأنه قيل: ما تفصيل مشابهة جيدها لجيد الرئم وبيانه؟ فجاءت الجملة المنفية مفصولة غير معطوفة؛ لتجيب عن هذا الذي قدر وقوعه في أنفس المستمعين.

وقرينة هذا الوجه وسابقه وتأكيدهما مما يعتور التشبيه السابق من نوع إجمال وإبهام نشأ من حذف الوجه الذي أثار حذفه في النفس المتلقية كل هذه التداعيات والتفاعلات الحركية التي تستدعي تفصيلا وبيانا ، وتقتضي تقريرا وتمكينا.

وقد تعانق مع الجملة المنفية في مواقعها السابقة على إثراء الدلالة وتعميقها، وتقريرها وتوكيدها عناصر البناء ولبناته التي تركبت منها الجملة ذاتها؛ ابتداء بآلة النفي نفسها، وكونها " ليس" خاصة؛ فقد حقق بإيقاعها في صدر الجملة، مضافا إليه سمتها في الجمود وعدم التصرف، ودخول الباء الزائدة في خبرها "بفاحش" نوعا من الوكادة، وقدرا متعاظما من التشديد والتحقيق؛ لدلالة هذا وذاك على شدة رسوخ جيدها في الوصف المنفي، وفرط تمكنه فيه، فجيدها ليس بكريه المنظر، ولا متجاوز قدره المحمود.

وقد كادت عبقرية الشاعر وألمعيته أن تلامس عنان السماء وأن تصافح كواكب الجوزاء حين قيد الجملة المنفية – أولا– بجملة: "إذا هي نصته" الواقعة في موقع الحال من ضمير الجيد ؛ فقد زادت المعنى عمقا ، والإيحاء غورا، والمضمون قوة؛ لأنها سلطت الضوء على الجيد في حال معينة، وذلك هيئته حين تنصه، أي: ترفعه؛ إذ هي أكثر الهيئات إظهارا لفحشه، وكشفا لعوره، وإبداء لمساوئه، فإذا كان جيدها حسنا جميلا في هذه الحال، وعلى هذه الهيئة فهو في غيرها من الهيئات والأحوال أجمل وأحسن، وأتم وأكمل.

فإذا أضفنا – ثانيا – إلى القيد السابق هذا القيد الآخر ، وهو قوله: "ولا بمعطل" المعطوف نسقا على خبر " ليس " تبين كيف كان امرؤ القيس شديد الحفاوة بمعناه، حريصا على استقصائه والإلمام به من جميع أطرافه وكافة جهاته؛ لتتضافر كل هذه القرائن السياقية إلى رسم ملامح الصورة التي ينسجها الخيال، وتتملاها العين لهذا الجيد، وتصوير كمال حسنه الفائق، ونهاية جماله البارع .

والمعطل: هو الخالي من الحلي والزينة، وقد سبق أن أشرت إلى أن انتفاء كون جيد المرأة كذلك يخرج في موقعه باعتبار دلالة الفحوى والمفهوم مخرج التعريض بأفضلية جيد هذه المرأة على جيد الرئم؛ لأن جيد الظبي عطل من الحلي والزينة، وجيد هذه المرأة مرصع بأنفس أنواع الزينة.

ويخرج باعتبار ما قد يتبادر إلى الفهم من توهم غير المراد، ووقوعه في موقع الفضلة؛ لنكتة الدفع مخرج الاحتراس، وذلك على النحو الذي سبق تفصيله وتحليله.

ويجوز بالنظر إلى التخصيص والتعميم أن يتنزل مما قبله منزلة الخاص من العام؛ باعتبار أن قوله: " ليس بفاحش" عام يشمل فيما يشمل هذا الخاص؛ لأن عطله من الحلي والزينة نوع من الفحش المنفي ومن جنسه ، لكنه لما كان أظهر في هذا المعنى وأدخل فيه أفرده بالذكر ؛ تنبيها إليه ، ولفتا للأذهان نحوه ، لتتعانق كل هذه الأوصاف المغرية التي رسمها الشاعر لتلك المرأة من خلال دلالات الألفاظ ، وإيحاءات الجملة، وعطاءات المواقع على تصوير غاية حسنها ، ونهاية جمالها، وفرط دلها ، وتمام دلالها، وإبرازها في صورة فريدة لكل ما هو أغلى وأعلى، وأنفس وأصون، وأعز وأكرم، وكل ما تصير به في غيابة البعد عن كل ذي همة وعزيمة ؛ ليتوسل الشاعر بكل هذه القرائن إلى تحقيق المقصد الأسمى، وتقرير الغاية العظمى، وتمكين الغرض الأهم بالنسبة له، وهو تصوير مدى تمكنه واقتداره ، وإبراز فرط تميزه وتفرده، وجرأته وجسارته؛ حيث يقتحم ما لا يستطيع غير اقتحامه ، ويصل إلى ما لا يقع في وهم غيره الوصول إليه.

أما الجملة المنفية بـ"ليس" في الموضع الثاني، وهي قوله: " وليس فؤادي عن هواك بمنسلي " فقد جاءت هي الأخرى في ختام حديثه عن المرأة التي اقتحم عليها خدرها، ووصفها بأنها بيضة خدر، مستأنفة في موقعها؛ للمبالغة في تحقيق شدة إخلاص الشاعر في حب هذه المرأة، وتقرير دوام رعايته لعهدها، وتأكيد بقاء وفائه لقديم صحبتها ومودتها؛ فإذا كانت عماية غيره من

العشاق – وهي ما يعلو العقول من الجهالة لفرط الصبوة والعشق – قد زالت وبطلت فإن حبه وعشقه إياها باق لا يبطل، وثابت لا يزول(١).

ويجوز – من وجه آخر – أن تكون الجملة المنفية في موقع الحال (٢)، على أن يكون المعنى: تسلت عمايات الرجال عن الصبا حال كون فؤادي لا ينسلي عن هواك، أو: والحال أن هواك لا يذهب أو يزول من فؤادي ، وحينئذ تكون الجملة المنفية من القيود المربية للفائدة في الجملة السابقة ؛ لتعلقها بها في الدلالة.

وهذا الوجه ليس في قوة الوجه السابق ، ولا في جودته ؛ لظهور استقلالية الجملة المنفية عن سابقتها، وعدم توقفها في الإفادة عليها ؛ لأنها أسست لمعنى جديد قائم بذاته، ومما لا شك فيه أن التأسيس خير من التأكيد ، وأكثر إفادة، وأقوى إيحاء منه؛ إذ هو الأبلغ في تحقيق صادق مودة الشاعر ووفائه، وتأكيد شدة إخلاصه.

وقرينة هذا الترجيح وتأكيده – أولا – من وقوع التضاد إثباتا ونفيا بين الجملة المنفية والجملة السابقة عليها، وجريانه خاصة في صورة طباق السلب، الواقع بين الفعل: "تسلت" مثبتا ، بمعنى: ذهبت وزالت، وبين قوله: "ليس بمنسلي" منفيا؛ فقد كان لوقوع المطابقة بين الجملتين على هذا النحو سلبا وإيجابا أثر كبير في إحداث نوع من مفارقة المفاجأة (٣) التي تتضافر – بما يتوفر فيها من عناصر المباغتة ، وعوامل اللفت والجذب – إلى إذكاء الحس،

---

(١) – ينظر شرح المعلقات السبع للزوزني ص٣٣ .

(٢) – ينظر الشعر الجاهلي . دراسة في منازع الشعراء ص٨٦ .

(٣) – مفارقة المفاجأة نوع من مفارقة الموقف أو السياق ، وهي تقوم على مخالفة ما يتوقعه المتلقي في الموقف الذي يمر به حيث ترد نهاية الموقف في الغالب مخالفة لبدايته، فتفاجئ القارئ وتصدمه . ينظر بناء المفارقة، دراسة نظرية تطبيقية، أدب ابن زيدون نموذجا، تأليف: أحمد عادل عبد المولى، ص١٣٤، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م ، مكتبة الآداب.

وإلهاب الشعور، وتعميق المعنى، وترسيخ الدلالة، وتصوير المراد، وإبراز البون الشاسع، والتباين التام، والهوة السحيقة بين حال الشاعر في الحب والعشق، والعماية والصبوة، وبين حال الآخرين؛ فبينما تبدوا المقدمات واحدة، والمعطيات متقاربة إذا بالنتائج المترتبة عليها متغايرة ومتباينة.

وقرينته – ثانيا – من غموض المعنى بالحمل على الحال ، وعدم وضوحه على وجه الإلباس والتعمية ؛ إما لعدم وجود صاحب الحال أصلا ، وهذا لا يتأتى ولا يصح؛ لاستحالته، وإما لكونه أجنبيا منها ، إذا كان هو " عمايات الرجال".

وقرينته – ثالثا– من أن الجملة المنفية هي المقصود الأهم ، والمعنى المحوري في هذا المعقد من المعنى ، والجملة السابقة كأنها مقدمة لها ، وتمهيد وتوطئة بين يديها ، وهذا مما لا تعلق للفضلات بتحقيقه وتحصيله .

وقرينته –رابعا– من عطف الجملة المنفية بالواو المؤذنة بالاستقلالية؛ المشعرة بالمغايرة، وقد جاءت هذه الواو مناسبة في موقعها بين الجملتين؛ لما بينهما من التوسط بين الكمالين؛ لاتفاقهما في الخبرية لفظا ومعنى ، مع وجود الوجه الجامع بينهما، وهو ما بينهما من علاقة التضاد ، وذلك على النحو الذي سبق بيانه؛ فإن الضد أقرب خطورا بالبال عند ذكر ضده، وأكثر استدعاء له؛ لاقترانهما في القوة المخيلة أو المفكرة ، وذلك على أساس ما يعرف في علم النفس بنظرية التداعي ، التي تقوم في جوهرها على استدعاء المعنى للفظ الحامل له، وهذا –أيضا– هو جوهر نظرية النظم التي أفاض الإمام عبد القاهر الجرجاني في شرحها وتحليلها(١).

وقرينته –خامسا– من أصول البناء التي تركبت منها الجملة المنفية ولبناته؛ فقد صاغ الشاعر الجملة صياغة قوية ، حافلة بالعناصر التي تدل على فرط احتفائه بمعناه ، وشدة اهتمامه بمضمونه؛ وذلك بإيثار "ليس" أداة

---

(١) – ينظر دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ص٥٥ وما بعدها .

للنفي دون غيرها ، ومعلوم أنها تختص بنفي الجملة الاسمية ، وهذا يحقق نوعا من تناغم دلالات الخصوصيات في نسق العبارة ومبناها ؛ خصوصية " ليس " نفسها في الجمود وعدم التصرف ، وخصوصية دلالة النفي بها – في وجه – على الاستمرار (١) ، وخصوصية دلالة الجملة الاسمية المدخول عليها على الثبوت والدوام المقتضي تقريرا وتوكيدا ، لتتعانق كل هذه الخصوصيات على تصوير المعنى الذي أراده الشاعر ، وتوثيق مضمونه ، وهو أن حب هذه المرأة وعشقها باق في قلبه لا يزول ، وراسخ لا يبطل .

وبإيثار لفظة " الفؤاد " دون القلب؛ للدلالة على تمكن حبها من قلبه، وتجذر عشقها في مكان غائر في أعماق نفسه، فلا يمكن أن يزول أو يبطل في حال من الأحوال؛ فإن الفؤاد هو لب القلب، وموطن العقل والفكر، ومستقر الإحساس والشعور (٢).

وبدخول الباء الزائدة في خبر ليس: "بمنسلي" التي اكتسب المعنى بها قدرا زائدا من التوكيد ، وأبعادا إضافية من الثراء والعمق في الدلالة؛ لتسلط النفي بدخولها على المطاوعة ، وليس على أصل فعل السلو نفسه، وفرق كبير، وبون شاسع بين أن يكون النفي مسلطا على المطاوعة ، وأن الشاعر يحاول أن يسلو فلا يطاوعه صباه ؛ لأن " منسل " اسم مفعول من " انسلى " الذي هو مطاوع "سلى"، وبين أن يكون مسلطا على أصل الفعل، وأن يقول: ليس ساليا (٣)؛ لأن التجربة الشعرية أضحت به – هنا – أشبه بتجربة الصوفي الذي ذاق فعرف ، فلزم غير منصرف؛ وإن لامه اللائمون، ولعل هذا هو سر الإصرار الذي يظهر في موقف الرد الذي لا يخلو من عنف ، ويمارسه الشاعر مع كل ناصح صادق، لا يمل من خالص النصح ، وذلك على الوجه الذي ذهب به قول الشاعر بعد الجملة المنفية في سياق المعلقة مباشرة:

(١) – ينظر معاني النحو ١٩٠/٤ .

(٢) – ينظر لسان العرب لابن منظور فأد ٣٣٣٤/٥ .

(٣) – ينظر الشعر الجاهلي . دراسة في منازع الشعراء ص٨٦ .

أَلا رُبَّ خَصمٍ فيكِ أَلوى رَدَدتُهُ نَصيحٍ عَلى تَعذالِهِ غَيرِ مُؤتَلِي(١).

وبتقديم الجار والمجرور "عن هواك" المتعلق بخبر ليس عليه؛ لأن حديث هواها وقصة عشقها هي محط عنايته وموضع اهتمامه، وقيد شغله وتفكيره، وفيه – أيضا– مراعاة للبعد الإيقاعي، والتناغم الموسيقي في القوافي التي بنيت على روى اللام المكسورة.

وبإضافة الهوى إلى ضمير خطاب المحبوبة في قوله: " هواك " استئناسا بحبها، وتلذذا بخطابها، وإكبارا وإعظاما من شأن هذا الحب الذي وقر في قلبه، وتجذر في فؤاده.

وبهذا الالتفات الجاري من الغيبة في نسق الأبيات السابقة وسياقها: " تضيء الظلام–كأنها– إلى مثلها يرنو الحليم – إذا ما اسبكرت " إلى الخطاب المنبئ عنه الإضافة إلى ضمير خطابها في "هواك " في بناية الجملة المنفية؛ بقرينة الرواية الأخرى التي جاءت علي الأصل؛ بإضافة اللفظة المذكورة إلي ضمير الغيبة المؤنث الراجع إليها؛ على هذا النحو: " هواها "؛ للدلالة على حضورها الطاغي في قلبه، وقربها الشديد من نفسه، كأنها شاخصة أمام عينيه، لا تغيب صورتها عن وجدانه، مهما طال به الزمن، وامتد به العمر، وهذه وتلك معان ومضامين تتطابق مع مقام الإخلاص في الحب، والوفاء للحبيب، وذلك علي عادة الشعراء الجاهليين في هذا الشأن(٢).

وأخيرا: فإن الجملة المنفية كأنها ناظرة – من وجه – إلى المعنى في قوله في أول هذا المعقد الذي صور فيه كيف اقتحم على هذه المرأة الموصوفة بـ "بيضة خدر" خباءها، مع صونها وحياطتها، وعزتها ومنعتها: "وما إن أرى

---

(١) – ينظر كلاسيكيات الشعر العربي . المعلقات العشر .د/ صلاح رزق ١٩٧/١ ، والبيت في الديوان ص١٨ .

(٢) – ينظر تغاير الرواية على معلقة امرئ القيس وأثره في الدلالة البلاغية ، دراسة موازنة للباحث ص٤٧٥٩–١٧٦٠ ، بحث منشور بحلية كلية أصول الدين بأسيوط / العدد ٣٢ ، سنة ٢٠١٤م .

عنك الغواية تنجلي " وراجعة إليه رجوعا ظاهرا بينا، وعلى وجه لا يلتبس ولا يغيم، وقرينة هذا من تشابههما في طريقة النظم والبناء؛ حيث أكد النفي وعضده بعد أداته الأولى بحرف نفي زائد فيهما، وبهذا بدا آخر الكلام يتوجه إلى أوله، ويرتد إليه على وجه من الالتحام والالتئام، والتداخل الشديد الذي يؤكد على تماسك البنية النصية للشعر العربي عامة، والجاهلي منه على وجه الخصوص، وليس كل بيت منها –كما افتراه – جزرا متناثرة، منعزلا بعضها عن بعض في غياهب القصائد والدووابن.

كما تراها – من وجه آخر– تلتئم التئاما ظاهرا مع البيت الذي جاء قبلها في نسق المعلقة، وبخاصة قوله: " إلى مثلها يرنو الحليم صبابة " الذي ترى فيه الحليم قد تعلق نظره بها، وهفا قلبه نحوها، وبذلك صار هو والحليم سواء في الوله، وشدة الوجد، ونهاية الصبابة والعشق(١).

وكأن الشاعر بهذه الجملة السابقة يمهد بها ويوطئ بين يدي مقصوده، وكأنه يبغي بها إعذار نفسه ، ورفع الحرج عن ذاته في عدم قدرة فؤاده على التسلي عن هواها، وتمكنه من الخلاص من عشقها ؛ فإذا كان الحليم الذي بلغ مرتبة الكمال في العقل، والتمام في حسن التبصر في عواقب الأمور ومآلاتها يميل صبابة إليها، ويقع قسرا في حبالها وشباكها فهي لغيره أكثر إيقاعا، وأشد فتكا وإجهازا.

وأما الجملة المنفية في الموضع الثالث: " ليس بأعزل " فقد جاءت في ختام البيت ومعقد المعنى الذي وصف فيه الشاعر فرسه: " ضليع إذا استدبرته سد فرجه ..."؛ لتتعانق في موقعها مع ما سبقها في نسق المعلقة من أوصاف الفرس على تعميق الدلالة وترسيخها، وإثرائها وتلوينها، وترسم لهذا الفرس صورة ختامية، وتخط له مشهدا نهائيا يجسد الجمال الذاتي، والحسن الأصيل، والتقدير الممزوج بالرضا النفسي عن الفعل أو الإنجاز الذي قام به

(١) – ينظر الشعر الجاهلي. دراسة في منازع الشعراء ص٨٦ .

وأثره؛ ليستوفي الشاعر في هذا المشهد، ويستقصي كل أوصاف الفرس المرئية فيه جملة، والمرئية فيه من أمام، والمنظورة فيه من خلف، وذلك على نهج، أو في طريقة تشبه طريقة التقسيم الذي تستوفي فيه أقسام الشيء تفصيلا بعد التلويح بها مجملة، وكأن هذا الفرس بعد الفراغ من المطاردة والصيد، وما حققه فيه من عمل عجيب نادر، يتعذر على غيره فعله، صار معقد إعجاب النفوس، وصارت العيون تتأمله من جميع جهاته، وتدقق في كل تفاصيله، وكأنه استحال إلى أن يكون لوحة فنية نادرة، أو منظرا طبيعيا استوعب كل مظاهر الحسن ومقومات الجمال[١].

والذي يعاود الجملة المنفية السابقة بالنظر والتأمل يجد أنها جاءت في موقعها – من وجه– نعتا ثالثا على طريقة المدح والإشادة لموصوف محذوف، تقديره: " بذنب ليس بأعزل "؛ لتمثل – كما سبق– مظهرا من مظاهر العتق والنجابة، والكرم والأصالة التي يتفرد بها هذا الفرس، وينأى بها عن كل ما يعاب به؛ فعظم ذنبه كان على حد من الاعتدال ، ونهج من الاستقامة والاستواء، فلا يميل يمينا أو شمالا إلى أحد الشقين.

وجاءت – من وجه آخر– كناية عن وفرة ما يتوزع يمنة ويسرة من طول شعره وكثافته؛ فإن كون ذنبه –مع عظمه– لا يميل يمنة أو يسرة إلى أحد الشقين مما يستلزم هذا المعنى ويقتضيه؛ إذ لا يتأتى إلا بحصوله، ولا يتحقق إلا بوجوده، بل هو أبلغ في الدلالة على ذلك وأدخل، وأقوى وأمكن؛ لقيامه مقام الدليل القاطع على صحته، والبرهان الجازم بصدقه، وكأن هذا الفرس لا ينقطع فيض تميزه وتفرده عطاء وجمالا، مستقبلا ومستصحبا، ومستدبرا.

---

(١) – ينظر الشعر الجاهلي. دراسة في منازع الشعراء ص١٢٦ ، كما ينظر كلاسيكيات الشعر العربي. المعلقات العشر. دراسة في التشكيل والتأويل ٢١٠/١.

وقد جمع الشاعر –على نحو من العبقرية– لفرسه بين صفات من وادي الإثبات ماثلة في قوله: " بضاف فويق الأرض "، وبين أوصاف النفي ماثلة في قوله في الجملة موضع البحث: " ليس بأعزل"؛ ليتعانق الإثبات والنفي في نسق البيت بما بينهما من تضاد يعمل على تقرير المعنى وتوكيده، وتثبيته وتمكينه على تصوير ملامح التفرد والتميز، والقدرة والتمكن، والجمال والحسن التي يتفوق بها هذا الفرس على أقرانه، وأنه قد حوى صفات الكمال وخلال الجمال كلها في جنسه، وخلا من كافة المعايب والمساوئ التي تنقص من قدره، وتحط من شأنه.

كما كان لدخول الباء الزائدة في خبر "ليس"، وهو قوله: " بأعزل " أثر بارز ودور كبير في إضفاء مزيد من الوكادة والتحقيق، والتقرير والتثبيت على المعنى المراد، والغرض المصور؛ إذ تعكس هذه الخصيصة البنائية في خبر "ليس" في مواضعها في المعلقة؛– إذ لم يرد خبرها في هذه المواضع بغير الباء– شدة قناعة الشاعر بمعناه، وفرط تشبع وجدانه بمضمونه، وأن نفسه قد امتلأت به وفاضت، فأراد أن يلقيه مقررا مؤكدا كما أحسه هو، وكما أفعمت نفسه به، وهذا – في ميزان النقد– يعد نوعا من استقصاء الشاعر لمعناه، واستيعابه إياه من جميع وجوهه، وهو ما يرقى– أيضا– إلى أن يمثل سمة بارزة، وخصيصة ظاهرة من خصائص شعر امرئ القيس كله.

" المحور السادس "

" مواقع الجملة المنفية نفيا ضمنيا في معلقة امرئ القيس وأثرها في تعميق الدلالة البلاغية وإثرائها "

النفي الضمني هو المفهوم من الكلام بدلالة الفحوى ؛ وبمعونة القرائن السياقية أو المقامية، أو الاثنين معا ، وليس بدلالة المنطوق عن طريق إحدى أدوات النفي الصريحة، كما كان الشأن في المحاور السابقة.

وهذا النوع من النفي يأتي في الكلام على صور عدة ، وفي أنماط مختلفة ، لكن الذي ورد منه في معلقة امرئ القيس صورتان اثنتان فقط ، هما صورة الاستفهام الإنكاري الذي يئول معناه إلى النفي، وصورة القصر بطريقة النفي والاستثناء خاصة.

أما الصورة الأولى: وهي صورة الاستفهام الإنكاري الذي يئول معناه إلى النفي فقد جاءت في موضعين اثنين من المعلقة، برز الأول منهما في قول امرئ القيس:

وَإِنَّ شِفائي عَبرَةٌ مُهْراقَةٌ وَهَل عِندَ رَسمٍ دارِسٍ مِن مُعَوَّلِ[1].

وبرز الموضع الثاني منهما في قوله:

أَغَرَّكِ مِنّي أَنَّ حُبَّكِ قاتِلي وَأَنَّكِ مَهما تَأمُري القَلبَ يَفعَلِ[2].

أما الموضع الأول فقد ذكر الشراح أن الاستفهام في الشطرة الثانية من البيت: " وهل عند رسم دارس من معول " استفهام إنكار ونفي ؛ إذ المعنى عند التحقيق : ولا طائل في البكاء في هذا الموضع ؛ لأنه لا يرد حبيبا ، ولا يجدي على صاحبه بخير، أو لا أحد يعول عليه ويفزع إليه في مثل هذا الموضع[3].

(١) – الديوان بتحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ص٩ .

(٢) – المرجع السابق نفسه ص١٣ .

(٣) – ينظر شرح المعلقات السبع للزوزني ص١٤ .

وتأكيد هذه الوجهة التي حمل عليها معنى الاستفهام من وقوع الجملة المذكورة في نسقها في موقع الاستئناف ؛ وقرينة هذا – أولا – من هذه الواو التي في أول الجملة حسبما جاءت به الرواية (1)؛ إذ هي واو الاستئناف التي استأنف بها الشاعر معنى لا يعطف على ما قبله ؛ لأنه ليس من جنس المعنى السابق ، ولا من واديه .

فهذه الواو أسست لمعنى جديد؛ يتمثل في إنكار الشاعر تهالكه عند هذه الديار، ورفضه البكاء الذي ذكر في الجملة قبل هذه الواو أنه شفاؤه (2).

وقرينته – ثانيا – من إيثار كلمة " معول " في قافية البيت – من وجه –؛ فقد ذكر الشراح أنها يجوز أن تكون بمعنى: مبكي؛ أخذا من العويل، وهو صياح، يقال: قد أعول الرجل فهو معول ، إذا فعل ذلك(3).

ويجوز أن تكون بمعنى: أمر يعول عليه ، وهو كل أمر يعتمد عليه وينفع، ويجوز – أيضا – أن تكون بمعنى : محمل ، يقال : عول على فلان، إذا حمل عليه، كأن المعنى: وهل يحمل على الرسم ويعول عليه ويكلم ؟، وأي شيء أدرس من هذه المنازل؛ إذا لم ير فيها إلا موتى(4) ؟، والمعنيان الأخيران متقاربان، والمراد في كل نفي الفائدة .

ومن تنكيرها، وزيادة " من " قبلها – من وجه آخر – ؛ إذ تزاد " من " في الكثير الأغلب قبل النكرات في سياق النفي خاصة؛ لاستغراق النفي

---

(1) – ينظر جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ص١١٦ ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، نهضة مصر للطباعة ، بدون تاريخ ، كما ينظر أشعار الشعراء الستة الجاهليين ، اختيارات من الشعر الجاهلي للأعلم الشنتمري ٣٠/١ ، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي ، الطبعة الثالثة ١٩٦٣م .

(2) – ينظر الشعر الجاهلي . دراسة في منازع الشعراء ص٣٦ .

(3) – ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص٢٧ ، وشرح المعلقات السبع للزوزني ص١٤ ، وشرح القصائد العشر للتبريزي ص٢٤–٢٥ .

(4) – ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص٢٧ .

وعمومه المنفي كله ، كأن المقصود من هذا النمط إلى تأكيد خلو البكاء عند الرسم ، أو خلو الاعتماد أو الحمل عليه من فائدة، أي فائدة .

وقرينته – ثالثا– من وصف الرسم بالدروس في قوله: " رسم دارس "،– بصرف النظر عن اختلافهم حول توجيهه(١)؛ تأكيدا على سفاهة البكاء عنده، أو الاعتماد، أو الحمل عليه؛ لتتعانق كل هذه الأسباب وتتضافر إلى تعضيد حمل الاستفهام في الجملة على معنى النفي، وأن المراد في كل هو نفي الفائدة بالكلية، وانتقاء الإفادة جملة وتفصيلا.

وإنما آثر الشاعر الإنكار على نهج الاستفهام دون الإنكار الصريح بأداة النفي؛ لأنه مع الاستفهام يطلب من القارئ أن يعود إلى نفسه ، وأن يراجع موقفه ، وأن يتأمل هذه الحقيقة التي دخل عليها الاستفهام ، وهو – لاشك – سينتهي فيها إلى ما انتهى إليه المتكلم ، ويصل إلى ما وصل إليه، ويقول: "ليس عند دارس من معول"، دون أن يملي عليه المتكلم ما يريد، وهذا أدل على وثوق الشاعر بمعناه، وأنه معنى يسلم به مخاطبه، ولا ينازع فيه بحال(٢).

إن إخراج النفي في هذا السياق المشحون بمشاعر الضيق ، ومظاهر الأسى والحزن مخرج الاستفهام والاستئناف كأنه ومضة إفاقة ، وبارقة تنبه استعلى فيها الشاعر على آهاته وأناته ، وآلامه وجراحه ؛ فقد كان في كل ما مضى في سياق المعلقة مستغرقا في همه الذي غلب عليه من ذكرى الحبيب الأول ، لكنه سرعان ما غلبه اليأس ، وعاوده الشوق والحنين ، ففاضت دموعه غزارا بعد تذكره صويحباته أم الحويرث ، وأم الرباب:

---

(١) ومنشأ هذا الاختلاف في التوجيه يكمن فيما بدا من تعارض أو تناقض بين هذه الجملة وبين قول الشاعر فيما سبق : " فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها " .

(٢) – ينظر دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر في التشبيه والتمثيل ، والتقديم والتأخير لعبد الهادي العدل ص٢٦٤–٢٦٥ ، دار الفكر الحديث ١٩٥٠م ، كما ينظر الشعر الجاهلي . دراسة في منازع الشعراء ص٣٦ .

فَفاضَت دُموعُ العَينِ مِنّي صَبابَةً عَلى النَحرِ حَتّى بَلَّ دَمعِيَ مِحمَلي[١].

ومن وجه آخر: فإن إخراج النفي في صورة الاستفهام ، وعلى نهج الاستئناف هو الذي يعكس – أيضا في هذا الموقف المشحون – صلابة الإرادة الشاعرة التي تضن بتلك الدمعة ، أو ذلك التعويل ، وينبئ عن امتلاك القدرة على التجاوز والشفاء رغم هذا العنف العنيف، والزلزلة القوية، ويشير إلى فرط الثقة في الرؤية الذاتية، واليقين من دقة التشخيص، مشوبا بظلال يسيرة من السخرية، وكأن الشاعر قارب أن يرفض هو نفسه ما عليه حاله من التهالك في عرصات هذه الرسوم.

أما من عطف الجملة الاستفهامية ونسقها بالفاء ؛ على هذا النحو الذي جاءت به الرواية–أيضا–: " فهل عند رسم دارس من معول[٢] " فإن المعنى يختلف – حينئذ – تبعا لاختلاف موقع الجملة ؛ إذ تكون معطوفة على الجملة السابقة: "وإن شفائي ... " على وجه الترتيب والتعقيب ، وحينئذ يكون الغرض المقصود منها هو طلب البكاء وإرادته، وليس إلى إنكاره ونفيه، إلا أن إخراجها في هذه الصورة هو الأقوى في الطلب، الأشد في الإلحاح ؛ لإفادتها إياه – أولا – على وجه السرعة؛ بدلالة الفاء، ومن دون مهلة أو تراخ.

ولإظهار كمال العناية به – ثانيا – بدلالة " هل " التي أبرزته في صورة المستفهم عنه الذي لا جزم بانتفائه.

وتأكيد هذا المنحى في التحليل – من وجه – من قرائن السياق ؛ بدلالة قوله في الشطرة الأولى: "وإن شفائي عبرة مهراقة"؛ فقد قرر فيها أن شفاء نفسه من آلامها وأحزانها في هذه العبرة المصبوبة، فشرع يطلبها على وجه السرعة؛ وهذا أمر بدهي؛ لتوقف الشفاء عليها.

(١) – الديوان ص٩ .

(٢) – ينظر شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري ص٢٥ ، وشرح المعلقات السبع للزوزني ص١٤ ، وشرح القصائد العشر للتبريزي ص٢٣ .

وبدلالة كلمة: " معول " في قافية البيت ؛ فقد جوز الشراح – كما سبق بيانه – أن تكون بمعنى: مبكي ؛ إذا كانت مأخوذة من العويل، وهو صياح، يقال: قد أعول الرجل فهو معول، إذا فعل ذلك(١)، وحينئذ يكون المعنى: فهل عند رسم دارس من مبكي ؟

وبدلالة إخراج الطلب في صورة الاستفهام الذي أفاد معنى التمني؛ بقرينة قوله في الرواية: " وإن شفائي عبرة لو سفحتها " ، وقوله في الرواية الأخرى: "إن سفحتها(٢)"، كأنه يرى البكاء مستبعدا، أو ممتنعا، أو مستحيلا؛ لغلبة اليأس والقنوط عليه؛ لجمود عينيه عنه، وضنهما به، أو لتجلده وتصبره، وصلابته وقوة إرادته؛ فلا يمكن لمثله أن يستسلم لأحزانه وأشجانه.

وتأكيده – من جانب آخر – من قرينة المقام–؛ فإنه مقام بكاء واستبكاء؛ بدلالة مطلع المعلقة نفسها عما قريب: "قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل".

وأما الموضع الثاني:

أغرك مني أن أحبك قاتلي   وأنك مهما تأمري القلب يفعل

فقد حمل بعض الشراح الاستفهام الكائن في الشطرة الأولى من البيت على النفي الذي يستلزم خطأ الحبيبة في اغترارها وحسبانها ، إلا أنه أوغل في تضعيفه وتوهينه ، قال الزوزني بعدما نحا بالاستفهام في الجملة منحى التقرير؛ اتباعا لجمهور الشراح : " ومن الناس من حمله على مقتضى الظاهر، وقال: معنى البيت: أتوهمت وحسبت أن حبك يقتلني؟ أو أنك مهما أمرت قلبي بشيء فعله ؟!، قال: يريد أن الأمر ليس على ما خيل إليك ؛ فإني مالك زمام قلبي ، والوجه الأمثل هو الوجه الأول ، وهذا القول هو أرذل الأقوال ؛ لأن مثل هذا الكلام لا يستحسن في النسيب بالحبيب"(٣).

---

(١) – ينظر شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنباري ص٢٧ .

(٢) – ينظر المرجع نفسه ص٢٥ ، كما ينظر شرح القصائد العشر للتبريزي ص٢٣ .

(٣) – شرح المعلقات السبع للزوزني ص٢٢ .

ومع أن الزوزني قد بنى نقده لهذا الوجه وأسس توهينه إياه على علة مقبولة، وسبب مستساغ ، وهو عدم مطابقة هذا المعنى لمقام النسيب والغزل بالحبيب الذي يقتضي إظهار التهالك ، وفرط التدله ، وغاية الاستكانة غير أن البحث بعد نظر وتأمل وجد لحمل الاستفهام على معنى النفي والتنبيه إلى الخطأ وجها مقبولا ، وسرا مكنونا، لاسيما إذا كان هذا المقصد ، وتلك النكتة تكمن في إظهار نوع من التجلد والتمكن من السلو، عل المحبوبة تقتصر ، وتخفف شيئا من غلواء التدلل(١).

وقرينة هذا – أولا – من مطابقة حمل الاستفهام على هذا المعنى في كثير من جوانبه لمقتضى حال الشاعر ، وما عهد عنه في مخاطباته لصويحباته ، وحديثه إليهن مما هو متناثر في سياق المعلقة وغيرها من قصائده مما يعضد هذا ويؤازره ؛ فقد كان– دائما – هو الآمر الناهي، المدل بكبريائه، المعتد بعزته وأنفته، المطاول بقوته واقتداره، وفرط تمكنه، حتى في لحظات ذروة تمتعه بالصاحبة ، كان يقول لها : " سيري وأرخي زمامه – ولا تبعديني من جناك المعلل – فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع .... "، وكان يقول: " هات نوليني " وغيره مما هو موجود في المعلقة ؛ فتنقاد لأمره ، وتتمايل عليه، وتذل لمراده وطلبه منها أيما إذلال.

وقرينته–ثانيا– من نسق المعلقة وسياقها ؛ بدلالة قوله في إثر هذا البيت مباشرة:–

وَما ذَرَفَت عَيناكِ إِلّا لِتَضرِبي بِسَهمَيكِ في أَعشارِ قَلبٍ مُقَتَّلِ(٢).

فلم يكن بكاؤها من حرقة وجد، أو لوعة حب وعشق ، بل لتقدح بسهمي لحاظها في أعشار قلبه المكسر ، وهو ما يقتضي منه إظهار نوع من التجلد ،

(١) – هذا الكلام مقتبس من كلام المحقق وتعليقه على البيت في شرح القصائد العشر للتبريزي ص٤٢

(٢) – ديوان امرئ القيس ص١٣ .

وإبداء التمكن من السلو، حتى تتراجع شيئا عن غلواء تدللها، وفرط عبثها بقلبه ومشاعره.

وقرينته– ثالثا– من الفصل بين الجملة الاستفهامية موضع البحث، والجملة السابقة عليها في البيت المتقدم:

وإن تك قد ساءتك مني خليقة فسلي ثيابي من ثيابك تنسل[1].

لكمال الانقطاع بينهما؛ لأنهما وإن اتفقتا في الإنشائية لفظا فهما مختلفتان معنى؛ إذ الجملة الأولى إنشائية لفظا ومعنى ، والثانية إنشائية لفظا، خبرية معنى، مع ما بينهما من تضاد في المعنى؛ إذ الأولى مثبتة، والاستفهام في الثانية محمول علي معنى النفي.

وأما الصورة الثانية من صور النفي الضمني في معلقة امرئ القيس، وهي صورة القصر بطريق النفي والاستثناء فقد جاءت في موضع واحد مثله قول الشاعر:

وَما ذَرَفَت عَيناكِ إِلّا لِتَضرِبي بِسَهمَيكِ في أَعشارِ قَلبٍ مُقَتَّلِ

إذ من المعلوم المسلم به بلاغة أن جملة القصر في قوة جملتين، إحداهما: إثبات مصرح به ، والأخرى : نفي متضمن ، وهذا يعني أن الشاعر – من وجه – أثبت الضرب بسهمي لحاظ المحبوبة في أجزاء قلبه المكسر لسيلان عينيها بالدموع ، ونفي – من وجه آخر – أن تكون هذه الدموع لحزن أهمها، أو ضيق ألم بها، أو علة أصابتها، أو غير ذلك – من أسباب البكاء المعهودة، ومن هنا نستطيع أن نجري القصر في البيت على هذا النحو: قصر الشاعر بكاء المحبوبة على الضرب بسهمي لحاظها في أجزاء قلبه المكسر من شدة الحب ، وفرط الصبابة والوجد ، ونفاه عن كل ما من شأنه أن يؤدي إلى البكاء من حزن أو مرض، أو غير ذلك ، إن كان القصر حقيقيا، أو نفاه عن الحزن أو المرض فقط إن كان القصر إضافيا، وهذا أو ذاك من القصر

---

(١) – المرجع السابق نفسه ص١٣ .

الادعائي؛ للمبالغة، قصر صفة على موصوف، أو قصر موصوف على صفة ؛ لأن كلا الطرفين مما يصح فيه التأويل؛ لكونهما في حكم الصفة، والقصر لا يتأتى مما بين صفتين فقط، أو مما بين موصوفين فقط، إلا أن حمله على قصر الموصوف على الصفة أولى؛ لكون العناية في البيت منصرفة إلى الاهتمام بالصفة، والتأكيد على تحققها وثبوتها.

والذي يضرب في هذا القصر بعيني النظر والتأمل يجد أن جملته قد استغرقت البيت كله، وأوفت على آخره، وهذا من تمكن الشاعر في بحره، وقدرته على إحكام صنعته.

وقد كان لتعدد مواقع هذه الجملة وتنوعها أثر كبير في تعميق الدلالة وتقريرها، وتكثيفها وإثرائها ؛ فقد وقعت في سياقها من القريض في موقع التذييل المقرر والمؤكد لمضمون البيت السابق عليه : " أغرك مني ...."، وهو أن حبها قاتله ، وأنها صاحبة سلطان ونفوذ ، وسطوة وهيمنة على قلبه، حتى صار مخرقا مكسرا ، فاسدا من شدة حبها؛ إذ البيتان يتقاربان في المعنى، ويلتقيان في كثير من عناصر الدلالة، وهذا التذييل من النوع الذي يمكن أن يجري مجرى المثل في المواقف والأحداث المشابهة؛ لإمكان استقلاليته بالإفادة، وعدم توقفه في فهم معناه على البيت السابق.

ويجوز – وهو الأولى والأقوى – أن تكون هذه الجملة مستأنفة في موقعها – بقرينة الواو التي تستأنف بها الجمل في أول البيت – ؛ لتأسيس معنى جديد بلغ به الشاعر الغاية في وصف وجده وصبوته، حتى ذهب العلماء بالشعر إلى أن هذا البيت هو أشعر بيت قالته العرب في الصبوة [(١)]، فهذه المرأة لم تبك لحرقة حب، وفرط صبابة ووجد ، وإنما بكت فقط لتقدح ببكائها في قلبه ، وكأن هذا البيت يمثل إجابة عن كل ما صارحها به في الأبيات السابقة ، وأنها حدثته بأبلغ مما حدثها به، ووصفت له توقا من خلال

---

(١) – ينظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/١٠١ .

هذه الدموع أبلغ من توقه ، فقد سمعت منه ، ثم أجابته بدموعها ، وهذا من أبلغ الوجد وأقواه ، وأخلص الحب وأوفاه ، وإنك لا تجد في الشعر العذرى ، أو في شعر النسيب أبياتا أصفى، ولا أطهر ولا أنقى من هذه الأبيات(١).

وقد تعانق مع وقوع البيت في سياقه هذا الموقع السابق تفصيله على تعميق الدلالة وإثرائها ، وتصوير الغرض وتقريره إخراج البيت – من وجه – مخرج القصر الادعائي ، وذلك على النحو الذي سبق بيانه وتفصيله .

وإنما ساق الشاعر معناه مساق القصر بالنفي والاستثناء خاصة ؛ لأجل ما تخيله من علة هي في غاية الغرابة ونهاية البعد ؛ فقد علل بكاء محبوبته، وقصر سببه على الضرب بسهمي لحاظها في قلبه المكسر من شدة الحب، وفرط الصبابة والوجد ، وترك ما عدا ذلك من أسباب البكاء ودواعيه المعهودة، والقصر بالنفي والاستثناء إنما يستخدم في الأمر الغريب الذي يجهله المخاطب ويجحده، أو لما ينزل هذه المنزلة ؛ لقوته في الإثبات ، ووكادته في الدلالة ، وعمقه في الإيحاء.

وتبهرجه – من وجه آخر – في لباس حسن التعليل من الضرب الثاني خاصة، الذي يكون الوصف فيه ثابتا ، وله علة معروفة ، لكن المتكلم يتغاضى عن هذه العلة، ويدعى له علة أخرى غير علته الحقيقية ، وهو ما يضفي على المعنى أبعادا إضافية من الجدة والطرافة ، واللفت والتنبيه والإثارة؛ لما يتوفر فيه من عنصر المفاجأة والمباغتة التي تمتع النفس، وتذكي الحس والشعور، وتثير الانفعال ، والكامن من الاستظراف، وهذا في حديث الغزل، ومقام استعطاف المحبوبة والتودد أو التحنن إليها أدخل، وبه أليق وأجدر؛ لدلالته – أولا – على غاية ضعف الشاعر المحب، ونهاية عجزه أمام سطوة جمالها الساحر، وسحر عيونها الفاتن.

(١) – ينظر الشعر الجاهلي . دراسة في منازع الشعراء ص٦٠ .

ودلالته – ثانيا – على فرط دلها ودلالها ، وقوة سحر عيونها ، وشدة فتك لحاظها، وعميق أثرها في نفسه ، وغور عبثها وفعلها في قلبه.

ودلالته – ثالثا – على كثرة مفاتنها ، وتنوع مظاهر حسنها وجمالها، حتى فاق المعهود ، وجاوز حدود التخيل.

كما كان لعناصر البناء ولبناته – أيضا – مدخل قوي ، وأثر فاعل في إثراء الدلالة، وتقرير المراد ، وتوكيد الغرض ، ولك أن تتأمل من ذلك إسناد الذرف – وهو السيلان – إلى العين – : " وما ذرفت عيناك " – إسنادا مجازيا ؛ بعلاقة المكانية ، وإنما يسيل الدمع ويجري في العين ، وذلك للمبالغة في الدلالة على غزارة الدموع ، وشدة البكاء، وتخييل أن السيلان جاوز الدمع إلى مكانه الذي يسيل منه وهو العين، فصار سائلا هو الآخر .

وانتصاب المضارع " لتضربي " الواقع بعد " إلا " بـ" أن " مضمرة ؛ بقرينة دخول اللام عليه ، وهذا يعني أن الفعل مع " أن " في تأويل مصدر مجرور ؛ إذ اللام لا تعمل الجر في الأفعال (١) ، وهذا يمنح الجملة المستثناة مزيتين بلاغيتين قلما يجتمعان – لتنافيهما – على محل واحد ، الأولى : ترجع إلى اعتبار مقتضى ظاهر الجملة وهيئتها التي هي عليها قبل التأويل ، وهي إفادة التجدد والحدوث، ووقوع الضرب وتكرره مرة بعد مرة ، وحالا بعد حال ، فجعل المرأة المذكورة قبل ذلك في قول الشاعر: " أفاطم مهلا بعض هذا التدلل (٢) " قلب الشاعر مخرقا فاسدا ، كما أفادته الجملة المستثناة من

---

(١) – وهذا هو مذهب جمهور النحويين ، ومن العلماء من ذهب إلى أن اللام ناصبة للفعل المضارع بنفسها أصالة ، وهذا مذهب الكوفيين ، ومنهم من ذهب إلى أنها ناصبة بنفسها نيابة عن "أن"، وذهب السيرافي وابن كيسان إلى أن الفعل المضارع منصوب بعد اللام بكي ، وليس بـ" أن "، ينظر الكتاب لسيبويه ٦/٣ ، ومغني اللبيب لابن هشام ٢٠/١، وهمع الهوامع شرح جمع الجوامع للسيوطي ٣٧٧/٢٠، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية ، مصر ، بدون تاريخ .

(٢) – الديوان ص١٢ .

قوله: " وما ذرفت عيناك إلا "، أو تملكها لقلبه، وذهابها بكله، وفوزها بجميع أعشاره ، على أن الأعشار جمع عشر ، والمراد: أعشار الجزور ، إذ كانت تقسم على عشرة أنصباء، فأفاد أنها ذهبت بجميع قلبه(١)، فهذا كله دأبها الذي تقصد إليه، وتحرص عليه، ولا تنفك عنه مرة بعد مرة ، وهذا – كما ذكرت في حديث الغزل أدخل، وبه أليق وأجدر ؛ لما سبق تفصيله وتحليله من أسباب.

والثانية: ترجع إلى اعتبار حال الجملة وهيئتها بعد التأويل؛ إذ تؤول "أن" المضمرة جوازا مع الفعل المضارع بمصدر مجرور باللام ، تقديره: " إلا للضرب ...."، وحينئذ تفيد الجملة المستثناة معنى الثبوت والدوام ؛ لبروزها في معرض الاسمية المنبئة عن ذلك، وهو ما يخلع على المعنى تقريرا وتوكيدا، وتثبيتا وتمكينا.

ولك – أيضا – أن تبحث في استعارة السهمين للحظي عيني المحبوبة، استعارة أصلية ؛ إذ لا يخفى ما تنطق به الاستعارة في هذا السياق من دلالة على شدة جمال هذه اللحاظ ، وغاية حسنها ، وعميق أثرها ، وشدة تأثيرها ، وقوة فعلها وفتكها بقلبه ، كما يفتك السهم المصمي في القلب المعمي.

وإنما آثر لفظ المثنى من السهم: " بسهميك "؛ للإيماء – من وجه – إلى كثرة وسائل القتل عندها وتعددها ، وتنوع مظاهر الفتك وتغايرها ، والدلالة – من وجه آخر– على استواء كل واحد من السهمين في الأثر المترتب عليه، والفعل الناجم عنه.

ولتحقيق نوع من المشاكلة التقديرية في نسق الكلام– من وجه ثالث–؛ إذ المراد أنها ذهبت بقلبه كله، واستولت على جميع أجزائه ، كما يستولي المقامر على جميع أعشار الجزور ، وهذا لا يتأتى له – حسبما ذكر الشراح– إلا بسهمين، وهما سهما المعلي والرقيب.

---

(١) – ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص٤٨ ، وشرح المعلقات السبع للزوزني ص٢٣ ، وشرح القصائد العشر للتبريزي ص٤٤ .

وقد رشح الاستعارة السابقة باستعارات أخر ، برز أولها في قوله: " لتضربي"؛ فإن الضرب من ملائمات المستعار منه ، وهو مستعار للرمي ، ثم اشتق من الضرب "تضربي" استعارة تبعية في الفعل؛ لتصوير شدة الأثر وظهوره، وقوة الإصابة وتمكنها، ولتتناغم استعارة الضرب للرمي مع ما ذكر بعد في سياق البيت من الأجزاء والتكسير في قوله: " في أعشار قلب مقتل ".

وجاء ثانيها في استعارة الأعشار للأجزاء في قوله السابق ؛ تشبيها لها بأعشار الجزور، حيث كان يقسم إلى عشرة أنصباء ؛ للدلالة على فرط استئثارها بقلبه كله، وأنها لم تترك فيه نصيبا لغيرها ، كما يستأثر سهما المعلي والرقيب: بجميع أجزاء الجزور وأعشاره(١).

وشخص ثالثها: في استعارة المقتل في قوله : " قلب مقتل " للمذلل أو المكسر، أو المخرق ؛ للدلالة على شدة تهالكه في حبها ، وفرط صبابته في هواها، ولتصوير غاية ضعفه ، ونهاية استسلامه لسحر عيونها، وفتك لحاظها(٢).

---

(١) – ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ص٤٨ .

(٢) – ينظر شرح القصائد العشر للتبريزي ص٤٤ ، كما ينظر الكشاف للزمخشري ٥٨٨/١ ، وأساس البلاغة للزمخشري – أيضا – ٥٢/٢ ، تحقيق : محمد باسل عيون السود / الطبعة الأولى ١٩٩٨م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

" الخاتمة "

وبعد أن خضنا غمار البحث في مواقع الجملة المنفية في معلقة امرئ القيس؛ على النحو الذي استوعبته محاور البحث تصنيفا وتبويبا ، وتفصيلا وتحليلا نفيء إلى الخاتمة، ونحط رحالنا عندها ؛ لنرصد أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة، ونسجل أبرز توصيات البحث التي بدت له في هذا الشأن، وذلك النحو الآتي:

أولا: تعددت مواقع الجملة المنفية في معلقة امرئ القيس، وتنوعت تنوعا ظاهرا، وذلك من تنوع أدواتها، وتعدد صورها وأنماطها، واختلاف مواضعها أولا وآخرا، وابتداء وانتهاء في نسق البيت من الشعر، ومن تغاير العوامل الداخلة عليها.

ثانيا: ترتب على هذا التعدد والتنوع بصوره المختلفة، واعتباراته المتنوعة كثرة الأسرار والنكات البلاغية المنبثقة عنه؛ لتتعانق كل هذه الأسباب والوسائل وترتد– في نهاية الأمر– إلى الدلالة ثراء وتكثيرا، وإلى المعنى تعميقا وترسيخا، وإلى المضمون تقريرا وتوكيدا.

ثالثا: يمثل تنوع مواقع الجملة المنفية في سياقاتها ومواضعها من معلقة امرئ القيس خصيصة من خصائص هذه الجملة خاصة، وسمة من سمات شعر المعلقة عامة، وذلك علي وجه يستدل به على شدة احتفاء الشاعر بمعناه، وفرط عنايته بمضمونه واهتمامه به.

رابعا: تنوع مواقع الجملة المنفية في سياقاتها من المعلقة؛ باعتباراته المختلفة يعد – من وجه – ضربا من ضروب الإيجاز البليغ، ويعد – من جانب آخر – وجها من وجوه استقصاء الشاعر لمعناه، ووسيلة من وسائل وفائه بغرضه وإحاطته به من جميع جهاته، وكافة أطرافه، وبهذا يكون الشاعر قد جمع – على نحو من العبقرية والتميز– بين مزيتين بلاغيتين قلما يلتقيان؛ لتنافيهما، هما الإيجاز والإطناب.

خامسا : قدرة امرئ القيس وتمكنه من توظيف هذه المواقع باعتباراتها المختلفة في تجسيد معانيه ، وتصوير أغراضه ، وترجمة مشاعره ، والتئام تراكيبه ، والتحام عناصر كلامه على نحو يحقق – من وجه – نوعا من التماسك النصي والبنيوي لقصائده وأشعاره.

ويحقق – من وجه آخر – نوعا من المطابقة التامة ، والملاءمة الكاملة بين الكلام وبين مقتضى الحال ، والمقام المصور .

ويعد – من وجه ثالث – دليلا آكدا ، وبرهانا قويا ظاهرا على صدق المشاعر ، وعمق التجربة الشعرية وواقعيتها .

سادسا : الشعر الجاهلي عامة ، وشعر امرئ القيس خاصة كان ولا زال ميدانا رحبا، وأرضا خصبة للدراسات البلاغية والنقدية ، وكلما بحثت فيه وتأملته كلما تفتق لك عن رؤى جديدة ، وتكشف لك عن وجه من وجوه العظمة الكائنة فيه؛ فإن الكلام العالي لا ينقطع عطاؤه ولا يغيض معينه .

سابعا : وبناء على النتيجة السابقة وانطلاقا منها فإن البحث يوصي بإيلاء ظاهرة النفي في سياقها من المعلقة مزيدا من الاهتمام والتتبع ، لاسيما ما يتعلق منها بنفي اللفظة المفردة ؛ إذ لا تعلق لهذه الدراسة بها ؛ لاختصاصها – كما سبق – بالجملة المنفية ؛ وذلك رجاء بتمام الموضوع ووفائه ، ورغبة بكمال الفائدة وتحققها .

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

" ثبت المصادر والمراجع "

١- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، تحقيق : د/ مصطفي ديب البغا ، الطبعة الثالثة ١٩٩٦م ، دار ابن كثير ، دمشق .
٢- أساس البلاغة للزمخشري ، تحقيق : محمد باسل عيون السود ، ط الأولى ١٩٩٨م ، دار الكتب العلمية – بيروت .
٣- الأشباه والنظائر للسيوطي ، الطبعة الثانية ١٣٥٩م هجرية .
٤- أشعار الشعراء الستة الجاهليين ، اختيارات من الشعر الجاهلي للأعلم الشنتمري ، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ، ط الثالثة ١٩٦٣م .
٥- الأصوات اللغوية . د/ إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠١٣م .
٦- الإعجاز البلاغي. دراسة تحليلية لتراث أهل العلم د/ محمد أبو موسى، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م، مكتبة وهبة ، القاهرة.
٧- إعجاز القرآن للباقلاني. تحقيق/ د. عبد المنعم خفاجي، الطبعة الأولى ١٩٩١م، دار الجيل، بيروت.
٨- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ، دار الجيل ، بيروت ، بدون تاريخ .
٩- بناء المفارقة . دراسة نظرية تطبيقية ، أدب ابن زيدون نموذجا، تأليف: أحمد عادل عبد المولى، ط الأولى ٢٠٠٩م، مكتبة الآداب.
١٠- التطور النحوي للغة العربية للأستاذ براجشتراسر، مطبعة السماح ١٩٢٩م.
١١- تغاير الرواية على معلقة امرئ القيس وأثره في الدلالة البلاغية . دراسة موازنة . د/ السيد أحمد أحمد موسى ، بحث منشور بحولية كلية أصول الدين بأسيوط ، العدد الثاني والثلاثون ٢٠١٤م .
١٢- جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام لأبي زيد بن أبي الخطاب القرشي، تحقيق : محمد علي البجاوي ، نهضة مصر للطباعة والنشر ، بدون تاريخ .

١٣-الجني الداني في حروف المعاني للمرادي ، تحقيق : د/ فخر الدين قباوة – أ- محمد نديم فاضل ، ط الأولى ١٩٨٢م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
١٤-الخصائص لابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٦م .
١٥-دراسات تفصيلية شاملة لبلاغة عبد القاهر في التشبيه والتمثيل ، والتقديم والتأخير . د/ عبد الهادي العدل ، دار الفكر الحديث ١٩٥٠م .
١٦-دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود محمد شاكر، ط الثالثة ١٩٩٢م ، مطبعة المدني ، القاهرة – دار المدني ، جدة .
١٧- ديوان امرئ القيس بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ١٩٩٠م .
١٨- ديوان امرئ القيس بشرح الحضرمي ، تحقيق : أنور سويلم ، د/ علي اله ، ط الأولى ١٩٩١م ، عمان ، الأردن .
١٩- رصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي، تحقيق: د/ أحمد محمد الخراط، ط الثالثة ، ٢٠٠٢م ، دار القلم، دمشق .
٢٠- سر صناعة الإعراب لابن جني، ط الأولى ٢٠٠٠م ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢١-شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة ٢٠٠٩م .
٢٢- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ، ط الأولى ١٩٩٨م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
٢٣-شرح التسهيل لابن مالك ، تحقيق : د/ عبد الرحمن السيد – د/ محمد بدوي المختون ، ط الأولى ١٩٩٠م ، هجر للطباعة والنشر .
٢٤- شرح القصائد التسع المشهورات لأبي جعفر النحاس ، تحقيق : أحمد خطاب، دار الحرية ، بغداد ١٩٧٣م .

٢٥- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، ط السابعة ٢٠١٧م ، دار المعارف ، مصر .

٢٦- شرح القصائد العشر للخطيب التبريزي ، تحقيق : الإمام محمد الخضر حسين ، ط الأولى ٢٠١٣م ، دار الصديق للعلوم ، دمشق .

٢٧- شرح الكافية في النحو للرضي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٥م .

٢٨- شرح المعلقات السبع للزوزني ، تحقيق : محمد إبراهيم سليم ، دار الطلائع ، القاهرة ٢٠١٤م .

٢٩- شروح التلخيص ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، بدون تاريخ .

٣٠- شعر ابن ميادة ، تحقيق : د/ حنا جميل حداد ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٩٨٢م .

٣١- الشعر الجاهلي . دراسة في منازع الشعراء ،د/ محمد محمد أبو موسى ، ط الأولى ٢٠٠٨م ، مكتبة وهبة ، القاهرة .

٣٢- الشعر والشعراء لابن قتيبة ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، ط الأولى ٢٠١٢م ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة .

٣٣- العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ، ط الأولى ١٤٠٤ هجرية ، دار الكتب العلمية، بيروت .

٣٤- العمدة في محاسن الشعراء وآدابه لابن رشيق ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط الخامسة ١٩٨١م ، دار الجيل ، بيروت .

٣٥- الكتاب لسيبويه ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، ط الثالثة ١٩٨٨م ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .

٣٦- الكشاف للزمخشري ، ط الثالثة ١٩٨٧م ، دار الريان للتراث ، القاهرة .

٣٧- كلاسيكيات الشعر العربي ، المعلقات العشر . دراسة في التشكيل والتأويل، د/ صلاح رزق، ط الأولى ٢٠٠٩م، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة .

٣٨- لسان العرب لجمال الدين ابن منظور، دار المعارف ، مصر ١٩٧٩م.

٣٩- معاني النحو . د/ فاضل صالح السامرائي ، ط الأولى ٢٠٠٠م ، دار الفكر، عمان ، الأردن .
٤٠- المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم لسعد الدين التفتازاني ، تحقيق : د/ عبد الحميد هنداوي ، ط الأولى ٢٠٠٠م ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
٤١- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام المصري ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ١٩٨٧م .
٤٢- المقرب لابن عصفور ، تحقيق : عبد الستار الجوادي – عبد الله الجبوري، ط الأولى ١٩٧٢م .
٤٤- همع الهوامع شرح جمع الجوامع للسيوطي ، تحقيق : د/ عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية ، مصر ، بدون تاريخ .

" فهرس الموضوعات "

	الموضوع	الصفحة
١	المقدمة	٥٠٧
٢	التمهيد	٥١١
٣	المحور الأول : مواقع الجملة المنفية بـ" لم " في معلقة امرئ القيس وأثرها في تعميق الدلالة البلاغية وإثرائها .	٥١٤
٤	المحور الثاني : مواقع الجملة المنفية بـ" ما " في معلقة امرئ القيس وأثرها في تعميق الدلالة البلاغية وإثرائها .	٥٣٦
٥	المحور الثالث : مواقع الجملة المنفية بـ" لا " في معلقة امرئ القيس وأثرها في تعميق الدلالة البلاغية وإثرائها .	٥٤٧
٦	المحور الرابع : مواقع الجملة المنفية بـ" لما " في معلقة امرئ القيس وأثرها في تعميق الدلالة البلاغية وإثرائها.	٥٥٥
٧	المحور الخامس: مواقع الجملة المنفية بـ" ليس" في معلقة امرئ القيس وأثرها في تعميق الدلالة البلاغية وإثرائها.	٥٥٩
٨	المحور السادس: مواقع الجملة المنفية نفيا ضمنيا في معلقة امرئ القيس وأثرها في تعميق الدلالة البلاغية وإثرائها.	٥٧١
٩	الخاتمة	٥٨٣
١٠	ثبت المصادر والمراجع وثبت الموضوعات .	٥٨٥